الاتجاه الوطني
فى شعر محمد فضل إسماعيل
دراسة فى الرؤى والمضامين

إعداد الدكتور

مصطفى عبد اللطيف أحمد أبو طه

مدرس الأدب والنقد بالكلية .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله واهبِ الفضل ، ومُسدى النعم ، ومُجزلِ الخير ، ومانحِ العلم ، ومُعطِى الفِطنة ، ومُؤتِى الحِكمة ... إليه ــ سبحانه ــ يُنسب كلُّ فضل ، وبِحوله وطوله يُقضى كلُّ أمر ، وبتوفيقه وعونــه يتحقــق كــلِّ قصد ... سبحانه فطر خــلقه على حُبِّ الأوطان ، وجبلهم علــى الميــل إليها ، والتعلُّق بها ... حيث جعلها مُعادلة للروح ، ومُساوِية للنفس فى قوله جل وعز :﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِــن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾[1] . والصلاة والسلام الأتمان الأكمــلان على الأنموذج الأمثل ، والمثل الأفضل فى حُبِّ وفِداء الــوطن ، والميــل والحنين إليه ، والتعلُّق والكلف به .. حيث يقول عليه الصلاة والســلام مناجياً ربوع مكة الحبيبة إلى قلبه ، الأثيرة إلى نفسه ، بعــدما أخرجــه الذين كفروا منها ، بائحاً إلى ثراها الغالى ، وترابها العزيز بذلك البــوح الصادق ، ومُفضياً لربوعها ، ومعاهدها وجنباتها الحبيبة بذلك الحنــين الفائض ، والينبوع الدافق من الأحاسيس والمشاعر ، مُوجِّهاً فــى ذلــك الأدباء والشعراء ، ومُعلِّماً البلغاء والفصحاء :" ما أطيبكِ من بلــد !! ، وأحبكِ إليّ !! ، ولولا أن قومك أخرجونى ما سكنت غيرك"[2] ــ صــلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه الميامين الأطهار ..

([1]) من الآية ٦٦ من سورة النساء .

([2]) الحديث أخرجه الترمذي فى كتاب: المناقب ــ باب فى فضل مكة ــ رقم ٣٩٢٦ ــ ط دار الحديث .

وبعــد

فهذه دراسة أدبية لرؤى ومضامين اتجاه شعرى شاع فى نتــاج واحدٍ من أبرز شعراء الجيل الماضى الذى ظهر منذ أوائل العشرينات فى مصر ، أما عن الاتجاه الشعرى فهو الاتجاه الوطني ، وأما عن الشــاعر فهو محمد فضل إسماعيل – ذلك الذى سرى حُب الوطن فــى عروقــه ، وجرى فى دمه ، واستقرّ فى أعماقه ، وهزّ كيانه ... حيــث يمكننــا أن نصفه – من خلال شعره الوطني الغزير – بأنه شاعر أُشربت نفســه – منذ نعومة أظفاره – الوطنية ، منطلقاً فى ذلك مــن إيمانــه الصــادق ، وعقيدته الصحيحة .. فحبُّ الوطن من الدِّين ، وهو من الفِطر الســليمة .. ، فكم جادت قريحة شاعرنا بشــعر مُؤثِّر يتــأجج وطنيــة ، ويتقــد حماسة ، ويُعبِّرُ –من خلاله– عما يكنّه لوطنه من حُبٍ عميــق ، ومــا يأمله له من بناء ونهضة وخير عميم ، وذلك من خلال صُراخه المتكرر فى بنى وطنه ، ودعوته الملحّة إياهم إلى أن يتسلحوا بالأخلاق والعلــم والفكر ، وأن يأخذوا بأسباب الحرية والنهضة والاستقلال ، وأن يهمُّــوا بالتخلُّص من قيود المستعمر التى طالما كبَّلهم بها ، وجثم على صــدرهم حيناً من الدّهر .

كذلك يبدو حُبُّ الشاعر الصادق لوطنه ، ويظهر حرصه الشــديد على ما فيه الخير والرشاد لأبنائه ، ويتأكد ذلك الحُبّ لديه مــن خــلال إشادته بقادة الحركة الوطنية ، وروادها فى عصره ، وتنويهه بفعــالهم وجهودهم ، وتغنيه بتضحياتهم ، وتخليــده إياهــا ، فكــم رووْا غــرس الوطنية بدمائهم ، وأذكوها بمهجهم وأرواحهــم ، وأمــدوها بــأموالهم وعتادهم ، متحمِّلين فى سبيل بناء ونهضة وحريــة واســتقلال وطــنهم

الويلات ومُستعذبين العـذابات ، ومسـتطيبين الآلام ، مـذكين الـروح الوطنية فى نفوس بنى وطنهم ..

ورأيناه – أى الشاعر يشيد – من خلال شعره الوطني أيضـاً – بمفاخر وطنه ، ويتغنى بأمجاده ــ ويُمجِّد بطولاته ... متخذاً من أبطالـه وقواده مثلاً أعلى يُفتدى ، وأنموذجاً فذّاً يحتذى ، وقدوة صـالحة تفيـد منها الأجيال ، وتسير على هديها الناشئة ... ناعياً – فى الوقت ذاته – على أمته ركونها وتقاعسها ، ودعتها وتخاذلها ... وغيـر ذلـك مـن مظاهر ومضامين شعر الوطنية عند الشاعر – مما سـتأتى الدراسـة عليه ، وتعالجه فى رويّة وأناة – بإذن الله تعالى وبتوفيقه .

ومن ثم تكمن قيمة تلك الدراسة ، وتتأكد أهميتها ، فهى تُعـالج شعراً يمثل فترة كبيرة من أهم وأبرز فترات تاريخ مصر الحديث – هـى تلك التى تقع بين عامي ١٨٩٨ – ١٩٦٩ م – حيث شهدت تلك السنون العديد من الأحداث المهمة ، والوقائع البـارزة مـن مثـل : الاحـتلال البريطاني البغيض ، واستئثاره بثروات البلاد دون العباد ، وتأميم قنـاه السيوس ، وقيام حركات التحرر والاسـتقلال ممثلـة فـى الزعمـاء : مصطفى كامل ، محمد فريد ، سعد زغلول ... وما تلا ذلك من ثـورات وطنية خالدة من مثل: ثورة ١٩١٩م ، وثورة ١٩٥٢م ... وغير ذلـك من الأحداث البارزة ، والوقائع المهمة التى على إثرها تشـكل وجـدان مصر ، وصار لها بعد ذلك كيان مستقل ، ووجود معترف به بين الـدول الأخرى بعد أن نالت سيادتها ، ونعمت بحريتها ، وتخلصت مـن ربقـة المستعمر الغاصب بفضل أبنائها البررة ، وجهودهم المخلصة ... حيـث تُعدُّ هذه الفترة – بحق – من أخصب فترات تاريخ مصـر الحـديث ... يُضاف إلى ذلك أهمية الشعر الوطني بعامه وقيمتـه الكبيـرة ، وأثـره

العظيم ، وسمو مقصده ، وعظيم فائدته بين فنون الشعر الأخرى ، فما من شك فى أن الأدب الوطني أدب سام يتبنى رسالة سامية .. حيث يقوم بدوره الفعّال فى النهوض بالأمة والارتقاء بمواطنيها ، والأخذ بأيديهم نحو التحرر والإصلاح ، والسيادة والاستقلال ، فكم أوقد الثورات ، وكم أشعل الحركات الوطنية التى قام بها الزعماء ، والقواد الوطنيون ، فكان يشيد بهؤلاء القواد المخلصين والوطنيين الغيورين ، ويُلهب مشاعر المواطنين ، ويذكى حماسهم ضد الاستعمار الظالم بالتمرد عليه ، والثورة ضده ، والوقوف فى وجهه ...

" والأدب الوطني له الأثر الذى لا يُنكر فى تكوين المواطن الصالح ، والشعر بما يطبع فى نفس الشاعر من التحليق فى سماء الخيال ، والتطلع إلى المُثل العليا، يُمهد للنهضات الوطنية ، ويبعثها ، ويغذيها .. إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة ، ويستحثها على النفور من الذل وإباء الضيم ، ويُحبِّب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد ، وشعراء الوطنية فى مصر لهم فى هذه الناحية فضل عميم ، فكم ناصروا الحركة الوطنية فى مختلف عهودها ، وغذوها بقصائدهم ، وروائع شعرهم ، وسجلوا حوادثها الهامة ، وأشادوا بمفاخر الشعب ، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم ، وكم استضرخوا الإنسانية أن تهب لنصرته ، وتنتصف له من المظالم التى حاقت به ، وإن كثيراً من روائع الأدب التى جادت بها قرائح أولئك الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية ، وكان الشباب يحفظها عن ظهر قلب ، فتذكى فى نفسه روح الوطنية والإخلاص ، والإقدام والتضحية ،

وكم من قصيدة أوبيت من الشعر قد حرّكت المشاعر فى نفوس المواطنين ، وستحركها على الدوام مهما تقادمت عليها الأعوام[1].

وإذا كان لكل عمل من دافعٍ يدفع إليه، ودواع تدعوا إليه فإننى يمكن أن اشير إلى أن الدافع إلى دراسة هذا الاتجاه الشعري بخاصة عند الشاعر يتمثل فى غزارته وتنوّعه ، وقوته وجودته ، فهو أى – الشاعر – وإن كان شمولي الفكرة .. تنوعت اتجاهات شعره ، وتعددت مضامينه بين شعرٍ ديني ، واجتماعي ، وشعر فكاهة وسخرية ... إلا أن الاتجاه الوطني قد استأثر بالنصيب الأكبر من شعره ، وبجانب كثرة وذيوع الشعر الوطني عند الشاعر فهو جيد يأتى – فى أغلبه– فى درجة عالية من القوة والنضوج ، بما يتوافر عليه من مظاهر الجمال ، ومعالم الحسن ، سواء فى ألفاظه وأساليبه ، أم فى صوره ومضامينه .. وقبل ذلك فهو يحمل فى طياته مضامين مُهمة ، ومعاني سامية تتوافر على العديد من القيم العُليا ، والمثل النادرة التى من شأنها أن تسمو بمقاصد المتلقين ، وترقى بغاياتهم ، مُحرِّكة فى داخلهم شعوراً بالتوثب والعزم نحو تحقيق النهضة والبناء ، والحرية والاستقلال ، والرقي والازدهار لوطنهم ينضم إلى تلك الأسباب كون ذلك الشعر الوطني لدى الشاعر يُجسِّد فترة من أبرز الفترات التى مرت بمصر .. حيث حفلت تلك الفترة بالأحداث المهمة التى تشكل على إثرها وجدان مصر ، وصار لها بعد ذلك كيانُ مستقل ، ووجودُ معترف به .

([1]) شعراء الوطنية فى مصر– عبد الرحمن الرافعي– صـ٦، ٧ ط دار القومية للطباعة والنشر –القاهرة =الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م .

هذا وستقع دراستنا تلك – بفضل الله وبتوفيقه – بعد المقدمة فى فصل أوحد ، يسبقه تمهيد ، ويعقبه خاتمة ، ويأتى فى النهاية ثبت بالمصادر والمراجع التى أفادت منها الدراسة.

أما التمهيد فجاء بعنوان : "الشاعر محمد فضل إسماعيل حياةً وفنًّا ومؤثرات " ووقع فى فكرتين رئيستين :

الأولى بعنوان : الشاعر المولد والنشأة والوفاة .

والثانية بعنوان: شعر محمد فضل إسماعيل ، وشاعريته .

بينما حمل فصل الدراسة ذلك العنوان : الأبعاد الفكرية ، والآفاق الموضوعية لشعر الوطنية عند الشاعر ، وتنتظم تلك الفكرة الرئيسة فى عدّة أفكار جزئية – تُمثِّل جميعاً رُؤى ومضامين شعر الوطنية عند الشاعر، وهى كما يلى :

أولاً : التغنى بحبّ الوطن ، والتنويه بأمجاده ، والإشادة بما تتوافر عليه طبيعته – لاسيما مدينتا السويس والأسكندرية من مجالى السحر والبهاء ، والمظاهر النادرة المثال فى الحُسن والجمال .

ثانياً: تجسيد المعاناة ، وتصوير الاضطهاد الواقعين على كاهل بنى وطنه من قِبَلِ المستعمر الغشوم ، والاحتجاج على تصرفاته المعوجة ، وممارساته الهمجية آنئذ .

ثالثاً: الإشادة بزعماء الوطنية ، وباعثى نهضتها ، وقادة الأمة المصرية ودعاتها آنئذٍ إلى الحرية والاستقلال ، والنهضة والبناء ، والتنويه بجهودهم ومناقبهم ؛ لتتأسى بها الناشئة ، وتقتدى الأجيال .

رابعاً : حث بنى الوطن على العمل على ما فيه نهضة ورقي وطنهم ، والدعوة إلى افتدائه بالنفس والنفيس ، وإلحاحه فى دعوته إياهم إلى أن يتسلحوا فى جهادهم المستعمر ، والوقوف فى وجهه بسلاح العلم والأخلاق ، مؤكداً أن ذلك هو الطريق إلى التحرر والسيادة ، والسبيل إلى التقدم والريادة .

خامساً: التغنى بثورة يوليو ١٩٥٢ م ، والإشادة بآثارها الإيجابية ، وثمارها الإصلاحية التى لمسها بنو الوطن ، ونعموا بها .

ونلتقى بعد ذلك بخاتمة الدراسة ... حيث نتعرف من خلالها على أبرز النتائج ، ونقف فيها على أهم الملحوظات التى أسفر عنها البحث بعد دراسة أفكاره ، والغوص فى أعماقه ، والتعايش مع جزئياته ... ويأتى فى النهاية ثبت بمصادر ومراجع الدراسة .. والله سبحانه أسأل أن يمنّ عليّ بالتوفيق والسداد ، وأن يلهمنى الحكمة والصواب ، إنه سبحانه أكرم مسئول ، وأرجى مأمول : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّت وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

الباحث

التمهيد

الشاعر محمد فضل إسماعيل حياة وفنّا ومؤثرات .

ويتضمن فكرتين : الأولى : الشاعر المولد والنشأة والوفاة .

الثانية : شعر محمد فضل إسماعيل وشاعريته

الأولى : الشاعر محمد فضل إسماعيل المولد والنشأة والوفاة .

وُلد الشاعر محمد فضل إسماعيل فى أسرة رقيقة الحال ، كثيرة العدد ببلدة فاقوس بمحافظة الشرقية فى الرابع والعشرين من نوفمبر ١٨٩٨م ، وما أن بلغ الرابعة من عمره حتى ألحقه والده بكُتّاب القرية حيث حفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل به والده إلى مدينة السويس – تلك المدينة الأثيرة إلى نفس الشاعر ، القريبة من قلبه ، والتى كان له معها فيما بعد العديد من الوقفات فى شعره – انتقل الشاعر إلى تلك المدينة ، حيث ألحقه والده بإحدى مدارسها الابتدائية .. وبعد حصول الشاعر على الشهادة الابتدائية لم يشأ والده – بالرغم من ضيق ذات اليد – أن يكون هذا اليافع موظفاً حكومياً – جرياً فى ذلك على العادة المتبعة فى ذلك الوقت ، بل أراد لابنه أفقاً من العلم متسعاً ، ومجالاً من الثقافة رحباً ، وقد تمثل ذلك فى تعلم علوم الدين والشريعة من توحيد وتفسير وحديث وفقه على يد شيوخ الحلقات بالجامع الأزهر الشريف ، وقد تم للفتى ما أراده له والده ، حيث بقي عامين كاملين فى رحاب الجامع الأزهر الشريف يغترف من بحور علم مشايخه الأجلاء ، وينهل من فيض علمائه النجباء فى شتى فنون العلم والمعرفة .

ولم يستمر شاعرنا بالأزهر بعد ذلك ، ولم يكتف بالدراسة فى جنباته العامرة ؛ لأنه كان ذا ولع كبير بالجندية ، وحمل السلاح ، حيث حاول أن يلتحق بالكلية الحربية بالقاهرة ، إلا أنه لم يوفق فى هذا الشأن ، واستطاع بعد ذلك أن يلتحق بالمدرسة الحربية بالخرطوم ؛ نظراً لأن والده كان من أبناء السودان ، ولما له من عمومة وأنساب فى شتى نواحى السودان ، إلا أنه لم يتمكن أيضاً من إتمام تعليمه بالمدرسة الحربية ؛ بسبب نزعته الوطنية ، واشتراكه بشعره الثوري فى تأليب زملائه وأصدقائه ضد الاستعمار الانجليزي ، الأمر الذى أوغر صدر مدير معارف السودان آنئذ ، حيث تقرر بعد سنة من التحاقه بتلك المدرسة فصله من سلك طلبتها .. ليعود إلى مصر ، حيث يلتحق فى هذه المرة بمدرسة المُعلمين بالزقازيق ، وقد كتب له التوفيق فى هذه المرّة .. حيث تخرج من هذه المدرسة ليعمل مُدرساً فى مدارس السويس الابتدائية .

وحين اشتدت وطأة الشاعر على الاستعمار وأعوانه من الأذناب الخائنين من أبناء الوطن فى ذلك الوقت بنقداته اللاذعة ، ومواقفه الجرئية فقامت السلطات باعتقاله وتضييق الخناق عليه فعاد مرة أخرى إلى مزاولة مهنة التدريس ، ومكث بها اثنتين وأربعين سنة تنقل فيها بين معاهد التعليم المختلفة .. كمدارس جمعية العروة الوثقى بالإسكندرية وغيرها ، حيث عمل مفتشاً للأناشيد بمنطقة الوجه البحرى بالإسكندرية وقد ظلّ – رحمه الله– على هذه الحال يقوم بهذه المهنة الشريفة – مهنة التدريس – وفى ذات الوقت يُرسل بأشعاره الوطنية الملتهبة ، ويبعث بأناشيده الحماسية المتقدة بنار الوطنية ، والمفعمة

بحبه الشديد لوطنه ، والتى من شـأنها أن تـذكى شـعور الجمـاهير ، وتلهب نفوسهم ، وتدفعهم دفعاً إلى الذود عن ثـرى وطـنهم الغـالى ، والوقوف فى وجه أعدائه من المستعمرين الغاشمين ، والأذناب الخائنين .. ظل الشاعر على تلك الحال إلى أن لحق بربه سـبحانه بالإسـكندرية صباح يوم الاثنين الموافق ١٩٦٩/١٠/٦ م -رحمه الله- لقاء ما بـذل وقدّم !(١) .

الثانية : شعر محمد فضل إسماعيل وشاعريته :

وُهب الشاعر محمد فضل إسماعيل موهبـة شـعرية كبيـرة ، اتضحت معالمها فى شعره لاسيما الوطني ، حيث إن له فى هذا الاتجـاه الشعري دُرراً غالية ، وقصائد نادرة عالية القيمة ، سواء فى مضمونها أم فى شكلها .. وقد رُزق هذه الموهبة فى سن مبكـرة ، حيـث بـدأت رحلته مع الشعر فى السادسة عشرة من عمره ... على نحو ما ورد فى مقدمة الديوان ... وقد كان لدراسة الشاعر فى رحاب الجامع الأزهـر ، وتزوده من علومه ومعارفه - وهو فى سن غضة - أكبر الأثـر فـى بناء وصقل ثقافته الدينية ، وإكثاره من القول فى الشعر الديني فى تلـك الفترة المبكرة من عمره ، وذلك على نحو ما أشار إليه الأسـتاذ أحمـد مصطفى حافظ - جامع شعر الشاعر ، وصديقه الحميم - حيث يقـول : "وأخبرنى (أى الشاعر) - رحمه الله- أكثر من مرّة أن هذين العـامين

---

(١) تنظر هذه المعلومات وغيرها عن الشاعر حياة وفناً فى مقدمة ديوانه : محمد فضل اسماعيل - شاعر السويس - جمع الأستاذ أحمد مصطفى حافظ صـ أ-ر ، ٣-٩ . ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيـة - القـاهرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

(يقصد العامين الذين درس فيهما فى رحاب الجامع الأزهر) كانا ذوى أثر بعيد فى تكوينه ، وتوجيهه إلى تعشق علوم العربية ، وتذوق الشعر ، واهتدائه إليه لأول مرة منذ نعومة أظفاره ، بعد أن أتيح له التزوُّد بالعلم الغزير من فقه ومتون وشروح وحواشٍ [1] .

ويؤكد الأستاذ أحمد مصطفى حافظ ما لهذه الفترة – على وجازتها – من أثر كبير فى بناء شاعريته ، وصقل موهبته ، وكيف أنّ الشاعر نفسه قد لحظ ذلك .. حيث يقول " وقد كان يعزو (أى الشاعر) ما أطلق العنان لشاعريته وإرفادها بالديباجة الجزلة المشرقة ، والأصالة اللغوية إلى تلك الفترة – فترة دراسته بالأزهر – رغم قصرها نسبياً ، واللَّبق اللبيب يُفيد من العلم القليل ما لا يُفيد الفدم الخامل من العلم الغزير فى السنوات المتطاولة " [2].

ومن بواكير شعر الشاعر فى تلك الفترة قوله من قصيدة إلى ذات الله العلية :

يا مالك الملك يا قيوم سبحانك ... قد جلَّ ذنبي فهب لى منك غفرانك
إنى اتبعت هوى نفسى فواخجلا ... ماذا أقول إذا حكَّمت ميزانك؟!
مهما تعاظم ذنبي أو تملكنى ... فلا أريد به يارب عصيانك

([1]) شعراء ودواوين – أحمد مصطفى حافظ صـ ٢٥٦ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٩٠ .

([2]) المرجع السابق صـ ٢٥٧ ، والفدم من الناس : العيي عن الحجة والكلام ، مع ثقل ورخاوة وقلة فهم .. مادة : فدم – لسان العرب : للإمام العلاّمة ابن منظور ٤٣/٧ – ط دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .

حسبى بذاتك إيمانا ومعرفة أن لستُ أجحد فى التوحيد سلطانك[1]

ومن ذلك أيضاً قوله فى مدح خير الورى ، ومناجاة شخصه الكريم – صلى الله عليه وسلم – راجياً شفاعته العظمى فى يوم الحساب ، متمنياً أن يحظى بالمثول فى ساحة مسجده الشريف :

جاءنا القرآن يُطرى أحمدا بالتجلى فى ثناء عطر
يا شفيع الخلق إن جئنا غدا ما لنا فعل حميد الأثر
صلوات الله ما طير شدا أو تغنى بلبل فى السحر
هل لعينى يا حبيبي أن ترى نور(طه) قبل فوت الأجل
واضعاً خدى على ذاك الثرى ممعناً فى تُربه بالقُبل[2]

والذى يطل بنظره فى شعر محمد فضل إسماعيل يبدو له أن الشاعر شمولي الفكرة ... حيث تعددت اتجاهات شعره بين الشعر الدينى – ذلك الذى أبدع من خلاله قصائد عالية القيمة تعد ابتهالات صادقة ، ومناجاة صافية باح بها بين يدي الخالق سبحانه وتعالى ، ومن ذلك قوله :

إلهى أنت تعلم ما بنفسى وتعلم كل خافية وهمسى
وتعلم أن إيمانى قوي وكيف عليه أُصبح ثم أُمسى
فصُن عن كل مخلوق إبائى ورض نفسى على أدب التأسى

([1]) الديوان – صـ ١٧ .
([2]) المصدر السابق – صـ ٧٠ .

وقرّبنى لذاتك لا تكلـــــنى لأهوائى ففى الأهواء بؤســـى
عزيز أنت فاجعلنى عزيزاً إذا ما عشت أو جاورت رمسى
فلم أرَ غير بابك من سبيل ولا لسواك قد طأطأت رأســـى(١)

وله أيضاً أشعار شريفه سامية استمدت شرفها ، ونالت قــدرها وسموَّها ممن تتحدث عنه – وهو خير الورى سيدنا محمــد صــلى الله عليه وسلم في كلمات عذبة ، وعبارات رقيقة ولبنات شفافة .

ومن ذلك قوله فى رحاب هذا المقام السامى مُصوراً تقصيره عن الإيفاء به، وبصاحبه الكريم صلى الله عليه وسلم .. مهما وُهــب مــن قوة وفصاحة وأُوتي من حُسن بيان :

يا روض حدِّث عن الريحان والزهر وانشر أريجك بين الفجر والسحر
وعلِّم الطير لحنا من عواطـــــفنا فالطير أصدق تغريداً على الشجر
لعل فى طوقها التعبير عن مهـــج تودُّ لو أفصحت عن طيّب الأثــــر
إذ ليس فى عالم الألفاظ مُتســــع لما أحاول من قصد ومــن وطــر
هذا مقام تعــــالى الله صـــوّرَهُ فى محكمات من الآيات والسور !
فالشـــعر مهمـــا تســـــامى فلن يتـــــاح الوصـــــول
ومـــــن أعـــــز مقـــــاماً إن جاء ذكــــر الرســـول؟!(٢)

(١) الديوان صـــ ١٧. والرمس : القبر ، والجمع : أرماس ، ورموس – لسان العرب – مادة رمس – ٤ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
(٢) الديوان صـــ ٢٥.

ولعل هذه النماذج وغيرها مما يسير فى نفس مضمونها هى ما حدا بالأستاذ أحمد مصطفى حافظ أن يقول :"الناظر فى شعر محمد فضل إسماعيل لا يستطيع بحال من الأحوال أن يغفل عن قصائده الدينية النابعة من صميم قلبه ، والتى تعد ابتهالات وصلوات ومناجاة صادقة .. بل إن الناظر فى شعره يستطيع أن يضع دون تحرُّج هذه الابتهالات الدينية فى صفٍ من عيون الشعر الديني ، وتراتيله الرخيمة " [1] .

والطريف عند الشاعر أنه يمزج بين الشعر الديني وبين الشعر الوطني مزجاً شديداً ينبئ عن إيمان قوي ، وعقيدة صادقة ... حيث يقول واصفاً إحدى الغارات الجوية على مدينة السويس – وقد مزج بين الدين والوطن :

كانت مخابئنا التقوى نلوذ بها خير المخابئ ما بالدين نبنيها

فالدين حصنٌ قويٌ فى جوانبه ما ينسف الأرض والدنيا وما فيها

دين به جاء خير الخلق ينشره والجاهلية أشواك بواديها[2]

وله شعر فى الإخوانيات والاجتماعيات ، وله كذلك باع طويل فى شعر الفكاهة والسخرية .. ويبقى بعد ذلك الاتجاه الوطني فى شعر محمد فضل إسماعيل فنجد الشاعر قد صال فيه وجال ، وأفاض وأجاد ، حيث نراه نظم العديد من القصائد التى تغنى فيها بوطنه ، متحدثاً – من خلالها – بلسان أهله وذويه من بنى وطنه ، متغنياً بآلامهم وآمالهم ، مجسداً واقعهم آنئذ ، خاصاً من بين ربوع وطنه تلك المدينة الباسلة –

([1]) الديوان – المقدمة – ص ق .

([2])المصدر السابق – والموضع نفسه.

مدينة السويس التى نشأ فيها وشبَّ ، ونما وترعرعت موهبته على أرضها ، وتفاعلت نفسه بأحداثها ، معبراً عن هذا التجاوب بأشعار هى من القوة والجودة والصدق بمكان ! ، حيث كانت بحق ترجماناً صادقاً ، ومرآة مصورة لما يحدث فى تلك الربوع وما كان يقوم به أبناء الوطن من بطولات نادرة ضد المستعمر وأذنابه من الخونة الغادرين ...

وقد كان شعر محمد فضل إسماعيل –فى مجموعه– موضع تقدير النقاد ، ومحل إعجابهم – يبدو ذلك من خلال كلام الدكتور /مختار الوكيل ، والأستاذ/ عامر بحيرى عضوا لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية –وهما يُقدِّمان لديوان الشاعر ، حيث يقولان :((ويمتاز شعر محمد فضل اسماعيل بديباجة قوية ، وأصالة لغوية ، وانطلاقة لاتحدُّه حدود ، فالشاعر طويل النفس فى شعره إلى درجة بعيدة ، وقد تبلغ القصيدة الواحده مائة بيت أو مائتين دون أن يحسن ناظمها ضعفاً أو إرهاقاً.. وجملة القول فيه أنه مرآة لعصره ،ومرآة لآلأمه وحرمانه ، ولقد كان يعرف كيف يمزج آلامة الشخصية بآلام أمته وشعبه ، فخرج من ذلك مزيج جيد أعانت عليه ديباجته القوية ،وحصيلته الطيبة من الألفاظ والصور البيانية ، وكان شأنه إذا نظم شان الناسج على المنوال يُحرك خيوطه يمنة ويسرة فى سهوله ودعة وطواعية فخرج من ذلك الشعر اليسير السهل الذى قد يخيل لبعض القارئين أنه من السهل جداً أن يكتب مثله ، وهو ليس كذلك فى واقع الأمر ، ولكنه شعر أخرجته إلى السطور حاسة معبِّرة ومخيلة مفكرة ، وحصيلة من الأدب وارفة مزدهرة .. وإنه ليسعدنا أن نقول منصفين إنّ محمد فضل إسماعيل حقيق بأن يُسلك فى دائرة

يتأرجح فيها ما بين حافظ إبراهيم وبين عبد الحميد الديب ، فهو يَعلوُ أحياناً إلى مرتبة حافظ ، وهو يُعبر عن آلامه وحرمانه فى بعض الأحايين الأخرى تعبير عبد الحميد الديب "[1].

والأستاذ السَّحرتى يُنِّوه بالشاعر ، ويشيد – هو الآخر – بمكانته الشعرية من خلال كلمة ألقاها فى احتفاء رابطة الأدب الحديث بالقاهرة بذكرى محمد فضل إسماعيل السنوية ، حيث يقول :" إن الشاعر محمد فضل إسماعيل من شعراء الجيل الثانى الذى أعقب شوقى وحافظ ومطران ، وتأثر بفن شوقى ، وأعجب بوطنية حافظ ، واستقل عنهما بديباجة سهلة سلسة رقيقة تنمّ عن لطف روحه ، وخفة ظله ، ولم يكن فى تعبيره من مدرسة الفصاحة التى تزعمها شوقى والجارم وأحمد محرم ، ولكنه كان من مدرسة البساطة التعبيرية التى ضمت أمثال: محمود عماد ، وطاهر الجيلاوى ، وعثمان حلمى ، ومحمود جبر .. وغيرهم فلا زينة ولا زركشة ، ولا بهرج ، بل اعتمد على اللفظة وجرسها ، والعبارة ومواءمتها مع المعنى ، وعلى القافية الطيعة المُحكمة " [2] .

---

(1) الديوان – المقدمة – ق، ر .

(٢) شعراء معاصرون – أحمد مصطفى حافظ صـ ٥٦ ، ٥٧ – مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٣م.

فصل الدراسة الأوحد

الأبعاد الفكرية ، والآفاق الموضوعية
لشعر الوطنية عند الشاعر

ويتضمن مبحثين :

المبحث الأول : رُوح الوطنية ومظاهرها فى ذات الشاعر وكيانه ، وأدبه .

المبحث الثانى : الأبعاد الفكرية ، والآفاق الموضوعية لشعر الوطنية لدى الشاعر .

دبت روح الوطنية فى نفس شاعرنا ، وسرت فى كيانه ، وجرت فى عروقه وتغلغلت فى دمه ، واستقرت فى أعماقه منذ نعومة أظفاره ، ثم ظهر أثرها ، وبدت معالمها بعد ذلك فى شعره ، حيث يبدو لمن يطالع شعره كيف أنه نذر قلمه ، وجنَّد نظمه للذود عن ثرى وطنه الغالى ، والتغنى بهموم وتطلعات أهله وبنيه " فهو ابن بار بوطنه ، مخلص فى حُبه إياه ..كم كان يرجو ويأمل فى أن يحيا بنو وطنه حياة كريمة ملؤها الأمن والرخاء ، والعزة والإباء ، والتقدم والاستقرار ، والحرية والاستقلال ، مهما كلفه ذلك المشقات وجرّ عليه الويلات .

كما يبدو لِمن يُنعم النظر فى شعر محمد فضل إسماعيل الوطني كيف أنه يمزج فيه بين ما يقع على أرض وطنه الصغير ، والأثير إلى قلبه (السويس) من أحداث ، وما أحرزه أبناء تلك المدينة المناضلة من بطولات .. وما حققوه من انتصارات إزاء عدوهم الغاصب آنئذٍ ، وبين ما وقع على أرض ذلك الوطن الكبير – والذى تُعد السويس إحدى ربوعه الغالية .. إنها مصر الحبيبة من أحداث خالدة ، وبطولات مجيدة

سجَّلها التاريخ بأحرف من نور ، وخلَّدها فى زهو وإعـزاز ، وعُجـب وفخار ، متحدثا بلسان أبناء مصر الأبطال ، مجسـداً مـا يُقلقهـم مـن هموم ، وما يلوح أمامهم من آمال وطموحـات فـى مسـتقبل يُشـرق بالحرية والأمان ، وينشد الرفاهية والاستقرار .

وهكذا يتوزع شعر محمد فضل إسماعيل الـوطني بـين هـذين الجانبين ، وفى كل منهما يثير نفوس مستمعيه ، ويُذكى نـار الحميـة والحماس بداخلهم ، ويستنهض هممهم ويحرك عزائمهم نحو النهـوض والارتقاء بوطنهم .

وقد ظهرت روح الوطنية عند الشاعر فى سن مُبكـرة ، وذلـك إبان اشتعال العواطف الوطنية فى ثورة ١٩١٩م :" إذ كان ما زال فـى العشرين من عمره ، فعبر أحسن تعبير بخياله الشاب ، وحماسته الفتية عن خلجات نفسه ، وعن أحاسيسه تجاه وطنه ، حيث يقول آنئذٍ !! :

فرعون لم يترك بمصر صغيرة إلاّ وخلّـدها علـى أطـواده

عجباً ! أنرضى أن نعيش أذلة فى العالمين ونحن من أحفاده؟![1]

وشاءت الأقـدار أن يمتدّ عُمر الشـاعر فتـأتى ثـورة يوليـو ١٩٥٢م ، وقد تجاوز الخمسين من عمره فانفعل بأحداثها وتجاوب مـع ملابساتها .. وما كان ذلك لانفعال إلا امتداداً لثورته العارمة الشابة فـى غضون ١٩١٩م ، ولكنه قد نضج فكـراً ، واسـتوى ذهنـاً وتجربـة ، ومضى يُخرج لنا بين الثورتين شعراً وطنياً متأجِّجاً ، وأناشـيد صـادقة التعبير عن نفسه الصافية ، حتـى لقـد اشـترك عـام ١٩٣٦ م فـى

([1]) الديوان– المقدمة صـ ٤ .

المسابقة العامة التى أقامتها الدولة لإعداد نشيد قومى ، وخرج من هذه المسابقة فائزاً بالجائزة الثالثة ، ولُحِّن نشيده ، وعُمِّم علـــى المـــدارس وغيرها من الهيئات الرسمية ، وفيه يقول مخاطباً نيل مصر :؟

فاجر يا نيلُ بواديك الأميـــــن إنه وحي من السحر المبين

نوره فى الدَّهر وضاح الجبين ينحنى فى جانبيـــه النيرِّان

نحـــــن أبنـــــــاء الألـــى طاولوا ملك الشـــــــــهب

قـــــد خطـــــونا للعُلـــى نفوق أعنـــــاق الحقـــــب

واسقنا يا نيل من نبع الحياة أنت للأوطان جاه أي جاه !!

يستميت الشعب حُبا فى علاه من شباب أو كهول أو حسان

نحن أبناء الألى [1]

وقد ظلَّ – رحمه الله – وفيا للسويس بعد عدوان ١٩٦٧ وحتى آخر نفس فى عمره ، حيث مكث بهـا رغم شيخوخة الســبعينات لمــده تزيد على العام يسهم بقصائده الحماسية فى إذكاء الشعور الوطني فـــى مرحلتي الصمود والردع بروح فتية لا تعرف الكلل ، ولا سبيل لها إلـــى الملل.. ومن شعره فى هذه الفترة :

بلســـانك العربـــى لا تتكلم بل بالمدافـــع للأمـــام تقـــدم

واجعل لاسرائيـــل قبراً هاهنا هو كالسّعـــيرعلـــى مهاد جهنم

فالتيهُ والأرضُ الخرابُ ديارهم لا القدسُ فى ظل المسيح ومريم

---

(١) الديوان– المقدمة صـــ ف .

لامن ولا سلوى ولا ما يُشتهى من كل ماجحدوا به من أنعـمُ[1]

ولم يكتف شاعرنا بأن ينذر شعره ، ويُسخِّر نظمه فـى صـالح وطنه، وتبنى قضاياه، وتجسيد آلامه وآمانيه ، والأخذ بيد أبنائـه نحـو التقدم والرخاء ، والتخلص من ربقة المستعمر واذنابه، مُـذكياً – مـن خلال أشعاره الوطنيـة المتقـدة ، وأناشـيده الحماسـية روح الحميـة والحماس فى نفوس بنى وطنه ، ومحركاً بداخلهم مشاعر الإباء والأنفة والثورة والرفض إزاء المستعمر الغاصب ، والوقوف صفّاً واحـداً فـى وجهه، والعمل على طرده من أرضهم ، وتطهير ثراهُ الغالى من رجسه، ودنسه.

لم يكتف الشاعر أن يجسد تللك المضامين الوطنية فى شـعره ، وإنما راح يبرز تلك الروح الوطنية الثائرة ، ويجسدها أيضاً فى كتاباتـه النثرية ، حيث يشير الأستاذ أحمد مصطفى حافظ إلـى ان الشـاعر قـد أصدر جريدة تسمى : "الثغر الشرقى " بالسويس.. وقد صدَّر العدد الأول منها بتلك المقدمه التى تفيض بمشاعر الحب والفداء ، والتقدير والثناء والتى باح بها بين يـدى وطنـه الحبيـب .. وهـي مشـاعر لايخفـى صدقها،ولا يُنكر سموها، حيث يقف الشاعر إزاء وطنه مناجياً ومفضـياً بما يكنه نحوه

([1]) الديوان – المقدمة – صـ٨ .

من مشاعر صادقة،وأحاسيس بالغة، يقول :

" أقف اليوم أمام جلالك أتغنى على دوحة مجـدك الرائع،أتقـدم إليك بهذا العلم الذى أحمله بين أناملى، فلست أملك سـواه مـن حطـام الدنيا"ـ هذا القلم الذى عرفت إخلاصه من قبل سيظل كذلك حتى المـوت ،مداده الصدق، وصريره الحق" هذا هو واجبى العام أمامك ، الا أن لـى واجباً خاصاً بإحدى مُدنك الكبرى ،وثغـورك الزاهـرة، هـى مـوطنى السويس. (١)

وقد التزم الشاعر بعهده الذى قطعه على نفسه، فلم يتوان عـن أن يكون جزءاً لايتجزأ من ثورة عام ١٩١٩، وأيضاً ثورة عام ١٩٥٢، والفترة التى كانت قبل الثورتين ، حيث الاحتلال البريطـاني الغاشـم ، والفترة التى وقعت بين الثورتين ".

وفى الصفحات القادمة سنحيا بإذن الله تعالى وبتوفيقه ـ مـع شعر محمد فضل اسماعيل الوطني فى تلك الحقبه المهمـة مـن تـاريخ مصر – بالدرس والتحليل ، راجياً ربى سبحانه أن يمن عليَّ بـالتوفيق والسداد، وأن يلهمنى الحقيقة والصواب .. إنه أكرم مسئول ، وأرجـى مأمول .

---

(١) الديوان – صـ ٤ .

المبحث الثانى: الأبعاد الفكرية ، والآفاق الموضـوعية لشـعر الوطنيه عند الشاعر.

الشاعر محمد فضل إسماعيل – كما تنطق أشعاره– هـو واحـد من شعراء الوطنية البارزين فى عصره،الغيورين على وطنه ،المخلصين فى حبه، حيث يعد ــ رحمه الله ــ بحق من أبرز شعراء الجيل الماضـى الذى ظهر منذ أوائل العشرينات ،والذى اضطلع بحمل الأمانه بعد أن خلا الشعر من فرسانه، فى أوئل الثلاثينات وما تلاها.

وقد عاش الشاعر واحداً وسبعين عاماً ١٨٩٨ــ ١٩٦٩م جاهد خلالها جهاداً كبيرا يذود عن وطنه ، ويذُبُّ عن ربوعه ، وينـافح عـن حياضه ، ماضياً فى ذلك وثابتاً لم ينكص قط عن أداء رسـالته، راجيـاً لوطنه كل تقدم وأزدهار، آخذاً بيد أبنائـه نحـو النهـوض والارتقـاء، والحريه والاستقلال بما يثيره فيهم من معانى التضحيه والولاء ، والبذل والفداء: " فالشعر كان وما يزال يثير الشجاعه ،ويذكى الحماس، ويجسم الأمال ، ويُعدُّ البشـر روحيـاً وثقافيـاً وسياسـياً لخـوض المعـارك والاستبسال فيها لكسب النصر ، أو الاستشهاد فى سـبيل الله والـوطن والمبدأ والعقيدة "[١] .

وسينطلق حديثى عن شعر الوطنية عند محمد فضـل إسـماعيل من خلال المضامين والأفكار التالية –تلك التى تُعنى كـل فكـره منهـا بمعالجة موضوع من موضوعات شعر الوطنيه عند الشاعر .

---

(١) الديوان ــ المقدمةــ صــ ى.

أولاً ــ التغنى بحب الوطن ، والتنويه بأمجاده ، والإشـــادة بمـــا تتوافر عليه طبيعته من مجالى السحر والجمال، والمظاهر النادرة المثال فى الحُسن والبهاء .

حُب الوطن مؤشر إلى رقة القلب ، ودليل على صـــحة الطبـــع ، وهو سمة بارزة من سمات الرشد ؛ لما فيه من الدلائل على كرم الأصل ، وتمام العقل، وصحة الطبع واستقامته : " وحُب الوطن فطرة عند كـــل كائن حي سواء كان إنساناً أم غير إنسان ، فهو يمتلك مشاعر الإنسان ، ويأخذ بقلبه ، ويستولى على فكره ، وخصوصاً إذا فارقه او بعُـــد عنـــه ولو إلى وقت محدود ، وقد عرف العرب ذلك ، وعبَّروا عنـــه فقـــالو : الكريمُ يحن إلى جنابه كما يحن الأسد إلى غابه ، "وقالوا: تربُـــة الصـــبا تغرس فى القلب حُرمه وحلاوة ، كما تغرس الولاده فـــى القلـــب رقـــه وحفاوة ، وقالو : إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه"[1] .

وشاعرنا كان ممن صحت طباعهم ، واستقامت نفوسهم فـــراح يتغنـــى بحب وطنه ، مؤكداً إفتداءه إياه بالنفس والنفيس ، وبذلـــه فـــى ســـبيل حريته وكرامته الغالى والثمين ..مُعرضاً نفسه للأخطار ، ومستعذباً فـــى ذلك الآلام .. حيث اعتقل من قِبل السلطات آنئذٍ ، وضُيق عليه الخنـــاق حتى يخرس صوته ، وتخبو جذوة الحماس المتقدة فى وجدانه ، لاسيما

([1]) رسائل الجاحظ ٣٨٦/٢ــ تحقيق عبد السلام هارون ط ــ مكتبة الخانجى بدون تاريخ ، وينظر : شعراء الجاهلية بين الأوطان وبلاط الملوك د/ محمد أحمد سلامه صـــ ١١ ط ــ دار الطباعة المحمدية ــ القاهره ١٤٠٥هـــ ــ ١٩٨٥ م.

بعد أن اشتدت وطأته على المستعمر وأذنابه الخائنين بنقداته اللاذعة ، وانتقادته الجريئة لسياستهم الجائرة ، وقيادتهم الطائشة .

ومن شعره فى التغنى بحب وطنه قوله ــ وقد وقف أمام جلاله وهيبته مناجياً إياه ، مصوراً ما تفيض به نفسه من مشاعر الحب والولاء والتضحية والفداء إزاء ربوعه الغالية ، مؤكداً كيف أن أي شئ مهما بدا عظيماً فسوف يتضاءل متوارياً أمام جاه ومجد ورفعة وطنه :

وطنى سلمت فعن حماك أقاتل وبمهجتى أفديك لست أجامل !!

فأمام جاهك كل جاه يمحى وأمام مجدك كل شئ زائل[1]

والشاعر إذ يقف من وطنه ذلك الموقف المؤثر ، وهو إذ يُعبرإزاءه بائحاً بتلك المشاعر الفياضة التى يؤكد صدقها فهو يقرر أنه يجد ذلك قليلا إزاء ما عليه من حق وواجب نحو وطنه الغالى ذى المجد العظيم :

فأمام جاهك كل جاه يمحى وأمام مجدك كل شئ زائل

وفى موضع آخر من شعره رأينا الشاعرــ وقد باح بما تكنه نفسه إزاء وطنه من مشاعر الحب والفداء الفياضة الصادقة ، حيث يتغنى بحب مصر مُفتدياً إياها بروحه ودمه ، مشيراً إلى أنه إزاءها ذلك المُحب المتهالك فى الحُب ، الصّب المتفانى فى الصبابة والذى صار لايرى سواها ، ولايرقب غيرها ، مفتدياً إياها بروحه ودمه ، مشيداً بعظمتها ، ومنوهاً بعراقتها بين أمم الأرض قاطبة :

([1]) الديوان صـ١٨٦ .

أنـــا فـــى محاسن مصر صب مولع متهتك فليشــــهد الثقـــلان

بالروح بالدم بالرقاب نصونـــــها من كل فاجئة من العـــدوان

الله فضلـــــها وعظـــم ركنـــها فجلالـــــها باق وليـــس بفان

خرت ملوك الأرض حول رحابـــها من خشية صرعى إلى الأذقان[1]

وهو يمعن ــ كما نرى ــ من خلال كلماته وتعــابيره هنـــا فـــى إبراز وتصوير شدة حبه لوطنه وصدقه فى ذلك الحُب ، ووفائه لحبيبتــه مصر ــ تلك التى بدت فى صورة معشوقته الحسناء التى سبت فــؤاده ، وسلبت لبّه ، فبات لا يرى سواها ، ولا يعلق بغيرها ، ولا يتحـــرج مـــن أن يُصرِّح بائحاً بمشاعره إزاءها ... والبيت الأخير يقوم – كما نـــرى – على المبالغة ، وفيه تأثر جزئي– من حيث الصـــياغة بتعبيـــر القـــرآن الكريم .. وذلك فى قوله عز اسمه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِــهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾[2] ... وفى هذا البيت يؤكد الشاعر ما لمصر من مكانة عالية ، ومنزلة سامية ، وهيبة عظيمـــة ، وجـــلال نـادر المثال ، مما يدفع ملوك الأرض أن يخروا إزاء عظمتهـــا ســـاجدين ... وبدهي أن السجود هنا يُقصد به سجود تكريم وتبجيـــل وتقـــدير لا سجود تأليه وتقديس ، حيث يستحقهما ربُّ العزة ــ سبحانه ــ منفـــرداً بهما وحده لا شريك له ...

([1]) الديوان صـــ١٠١.

([2]) من الآية (١٠٧) من سورة الإسراء .

هذا عن الوطن فى مفهومه الكبير ونطاقه الواسع .. أما عن ملاعب الصبا ومراتع الشباب ، ومواطن الذكريات الأولى لدى الشاعر حيث وطنه ، ومسرح ذكرياته الذى هو جزء من أرض مصر الحبيبة – فنجد الشاعر قد توزعت نفسه فى ذلك بين مدينتي السويس والإسكندرية ، حيث قضى بين ربوعهما جل سنيِّ عُمره ، وكان له فيهما العديد من المواقف والذكريات الماثلة فى وجدانه والتى لا يبرح يتذكرها ، ولا ينفك عن التغنى بها ، وتصوير شدة الشوق والحنين إليها .. حيث نراه تغنى بما كان له فيها من ذكريات ومواقف ما زالت حاضرة فى ذاكرته ، فهى الحياة بالنسبة له ، وهى ماضيه الذى يدفع به إلى مستقبله ، بما تثيره فى نفسه من مشاعر الهناءة والسرور ، والفرحة والحبور.

فها هو ذا – وبعد أن بَعُد عن مراتع صباه ، وملاعب لهوه "السويس" يصور ما ينتابه من شدة اللهفة ، وما يستبد به من لاعج الشوق للمثول فى ربوعها ، متغنياً بما كان له فى ربوع تلك المدينة من عهود ماضية ، وذكريات خالية لا زالت محفورة فى وجدانه ، مستقرة فى كيانه ، حيث تثير فى نفسه الهناءة والانطلاق فهي الحياة بالنسبة له ، وهى الباعث على شدوه ، وتغريده بالشعر ،مُصوراً تحسره على ذهاب ذلك العهد السعيد الذى شهد شعر الصبا والشباب ، وما يفيض به من مشاعر الحُب والهُيام ، ومنبئاً عن شوقه الشديد ، ورجائه الكبير فى أن يعود إليه ثانية.. حيث يقول :

مرّ بى منذ أربعين وخمس ذكريات كأنما هى أمسى
كان فيها الخيال يملأ حسى فاتركونى إذن أعود لنفسى

إنّ عهد الشباب عهد السويس هاهنا فى السويس كانت حياتى

مبعث الشعر فى فم النسمات والهوى والشباب من ندواتى

فيهما كنت صاحب النظرات أين شعر الصبا وكيف التأسى؟![1]

وتفيض تلك الأبيات – كما نرى – بما يستقر فى أعماق الشاعر إزاء السويس ذلك الربع العزيز من الوطن الأمِّ مصر – من مشاعر الحُب والحنين والحسرة والأنين ، حيث تمتزج تلك المشاعر وتتداخل فى نفس الشاعر .. خلال تلك الفترة المعنية .. فهى فترة تستأهل التحسر على ذهابها ، ومن ثم الحنين الجارف إليها ... يبدو ذلك التحسر والأسف من خلال تساؤل الشاعر الذى يجسد ــ من خلاله ــ ما شابه من أسى وحزن، باحثاً عن شئ يمكن أن يعزيه ، ويسرى عنه فى فقد ذلك العهد السعيد ، وثكل ذلكم الزمن الجميل : أين شعر الصبا ؟! وكيف التأسى ؟!.

ونرى الشاعر فى موضع آخر من شعره الوطني يتغنى بتلك المدينة الحبيبة إلى قلبه ، مشيداً بجمال شواطئها .. حيث القناة معبر السفن ، وممر الجوارى المنشئات ، ومنبع الخير ، منبئاً عن سروره بتأميمها .. وأن ذلك قد أكد من قوته ، وقوى من نضاله ، داعياً لتلك الربوع وللزعيم جمال عبد الناصر – الذى أمم القناه ليعود الخير ، ويئوب الرفد على أبناء الوطن ــ داعياً لهما بالسلامة والبقاء ، منوهاًبما على أرض السويس من معالم القداسة ، ومظاهر الحضارة الإسلامية الخالدة خلود الحياة ، وبما تجود به أرضها من خيرات طبيعية

([1]) الديوان – صـ ١٩٩ .

، وثروات معدنية من بترول وملاحة ، وما يستتبع ذلك من مصانع يعود خيرها على أبناء الوطن ، مؤكداً حبه لتلك الربـــوع ، ودعـــاءهُ لهـــا ، ولزعيمها بدوام السلامة والنماء .. لنستمع إلى الشاعر وهو يتغنى بتلك المعانى فى كلمات وتعابير دالة موحية صبها فى قالب موسيقي تجديدي يأخذ شكل النشيد .. حيث يقول :

محافظـــتى شاطـــئ للجمـــال تمـــر الـــسفين بـــه فـــى القنـــال

وتعلـــم أنـــى قـــوى النضـــال وتـــأميمـــه زاد مـــن قـــوتـــى

تعـــيش الـــسويـــس ويحيـــا جمـــال

بموســـى الكليـــم تنـــادى العيون وأمجـــادنـــا خلدتـــها الـــسنون

تعـــيش الـــسويـــس ويحيـــا جمـــال

ببتـــرولنـــــا يعـــمل المصـــنع ويحمـــى شـــواطـــئنا المدفـــع

وفى ساحة المـــجد لـــى موضـــع بفضـــل الملاحـــة والمصنـــع

تعـــيش الـــسويـــس ويحـــيا جمـــال[1]

وينتقل بنا الشاعر ــ عبر كلماته الدالة ، وتعابيره الموحيـــة ــ إلى الموطن الثانى الأثير إلى قلبه ، القريب من نفسه أيضاً ، حيث مدينة الإسكندرية ، متغنياً بما كان له على أرضها من ذكريات ومواقف هى جد ماثلة فى وجدانه ، حاضرة فى خاطره ، لا تغيب قط عن مخيلته ... فها هو ذا يبوح بمشاعره الذاتية إزاءها مصوراً ما ينتابه من مشاعر الحب والحنين لاسيما بعد أن نأى عنها فأخذ الشوق منه مأخذه ، وناله من ألم

([1]) الديوان ــ طـــ٢١٧.

البعاد ، وعذاب الهجر ما ناله !! مؤكداً تحسره إزاء هذا الفـراق الـذى فارق به الجمال الذى تتسم به ربوعها ، والسـحر الـذى تتصـف بـه جنباتها .. وكأنه قد ضل السبيل ، وحار فى الطريق ، وفقد الأمان يـوم أن اتجه إلى شاطئٍ آخر غير شاطئها الحنون الذى ألفه وأنـس بـه ... حيث يقول :

إسكندريةُ ، هـل رأيتِ تلهفـى قـد طـال بـى حبل النوى فتلطفى

وترفعـى فالبـعد عنك أصابنـى فـى مهـجة حـرى وقلب مدنـف

ياللجمـال لـقد ضـللت سبيـله يوم اتجهت لشاطـئ لـم يؤلف!![1]

والصياغة هنا جد رقيقة ، حيث يقف الشاعر خلالها بـين يـدى تلك المدينة (محبوبته الحسناء) موقـف المحـب المتفـانى ، والوجـد المتهالك ، والصب المستهام الذى راح يبوح بما تفـيض بـه حنايـاه ، وتكنه أعماقه إزاءها من مشاعر الحُبّ والشوق واللهفـة والحنـين .. وهى مشاعر قد استبدت به ، وتملكته فصار لايقدر على الفكاك منهـا .. حيث بدا ــ من خلال صياغته البليغة وكلماته الرائقة تلك ــ فى صـورة المحب الضعيف إزاء محبوبته التى تملك حبها من نفسه ، واستقر فـى كيانه ، ومن ثم رأيناه يناجى محبوبته " الإسكندرية الحسـناء" متسـائلاً وراجياً ومستعطفاً :

إسكندريـة ، هـل رأيت تلهفـى قـد طـال بـى حبل النوى فتلطفى

ويؤكد الشاعر تلك المشاعر ذاتها إزاء محبوبتـه الإسـكندرية "الغادة " بقوله مستعطفاً إياها:

([1]) الديوان ــ صـ١٧٨.

وترفَّقِـــى فالبـــعد عنك أصابنـــى فـــى مهـــجة حـــرى وقلب مدنـــف

فهو يرجوها مستدراً عطفها أن ترق لحالته ، وأن ترفق به إزاء ما ينتابه من شوق جارف ، وحنين عارم إليها ... فماذا بعد أن يصـــيب البعد روحه المتيمة ، ويصمى قلبه المعذب ، ويمضى اليهما فيصـــيبهما بسهامه النافذة .. ثم نلتقى خلال تلك الأبيات بذلك الأســـلوب التعجبـــى الذى يبرز الشاعر من خلاله ، ويؤكد ما تحظى به ربوع تلك المدينة من مظاهر الحسن ، ومعالم الجمال التى من شـــأنها أن تأســـر النفـــوس ، وتأخذ بالألباب ، وتستهوى الأفئدة .. لا يعـــدلها فـــى حسنهاوســـحرها وبديع صنعها ربع آخر !! وهذا مادفع الشاعر أن يتغنى قائلاً :

ياللجمـــال لـــقد ضـــللت سبيـــله يوم اتجهت لشاطئ لم يؤلف !! [1]

وهكذا يبدو الشاعرــ خلال مقطوعته الرقيقة تلك ــ بما تتـــوافر عليه من ألفاظ عذبة ، وعبارات حلوة ، وكلمات رائقة تلائم مثـــل ذلـــك المضمون الرقيق .. هكذا يبدو فى صـــورة المحب العاشـــق ، والولـــه المتيم ، والصبّ المتهالك الذى أضناه الحب ، وبراه الشـــوق ، ولـــم لا وتلك المدينة فى مخيلته لا تفارق ذاكرته قط ... ولا تغيب عن وجدانـــه أبداً على نحو ما يبدو فى قوله:

فتلطفى ....

وترفقـــى فالبـــعد عنك أصابنـــى فـــى مهـــجة حـــرى وقلب مدنـــف

وهكذا يصور لنا الشاعر نفسه ــ خلال تجاربه الوطنية تلـــك ــ فى صورة ذلك الوطني الصادق فى حُبِّ وطنه ، الـــوفِيِّ الغيُـــور علـــى

([1]) الديوان صـــ١٧٨.

حرمته الذى يفتديه بالغالى والثمين ، ويبذلُ فى سبيل بقائه عزيزاً كريما النفس والنفيس .

ثانياً: تجسيد المعاناة ، وتصوير الاضطهاد الواقعين على كاهل بنى الوطن من قِبل المستعمر الغاشم ، والاحتجاج على تصرفاته الوحشية ، وممارساته الهمجية أنئذٍ.

غير خاف أنه قد تعاقبت على مصر وأبنائها فترات سُود ، ومرّت سنون عجاف تجرعوا فيها كئوس الذلة والمهانة ، وذاقوا خلالها صنوف الاضطهاد والحرمان من قبل المستعمر الغشوم وأعوانه وأذياله الخائنين ، حيث كانوا يتفننون فى إلحاق الأذى والضرر بأبناء مصر فى غير ما رحمة ولا هوادة ، وينكِّلون بهم فى وحشية وهمجية .. والشاعر هو واحد من هؤلاء الذين ذاقوا هذا العنت٤ ، وقاسوا مرارته ، وعانوا ويلاته .. فكان من الطبعي أن تنفعل نفسه بذلك الواقع الأليم ، ومن ثم يهُم بتسجيله فى شعره ؛ من أجل أن يعبئ شعور المواطنين ، ويثير فى نفوسهم مساعر الثورة والرفض إذاء ذلك الواقع المرير ، فيثور الصادقون ، وينهض الغيورون عازمين مجتمعين على نصرة وطنهم ، وأن يتخلص مما يرسف فيه من أغلال ، ويكبل من قيود ، وما يعانى أبناؤه من ظلم واضطهاد ، وذل وهوان .

ومن ذلك قوله يُجسد فى شعره ما وقع على كاهل بنى وطنه الأبرياء من ظلم وعناء ، وما تعرضوا له من قهر وإذلال من قبل المستعمر الغاصب وأعوانه الخائنين المأجورين .. وذلك من خلال تلك الحادثه المأساوية الخالدة فى تاريخ مصر الحديث " حادثة دنشواى " عام١٩٠٦ .. لنستمع إلى الشاعرــ وهو يشير إلى ذلك ، مشيداً بدور

مصطفى كامل ــ أحد قادة الحركة الوطنية البارزين فى مصــر أنئــذ ، ومنوهاً بدوره الإيجابي وأثره المحوري فى تلك الحادثــة ، حيــث كــان اللسان الذائد ، والترجمان المعبر عن بنى وطنه فيما وقع عليهم خــلال تلك الحادثة من ظلم بين ، وعنت شديد ، وما تعرضوا لــه مــن قهــر وتعذيب ، ونفى وتشريد جاهراً صوته بالتحرر ، مطالباً بالاستقلال :

تقدم يحمى "دنشواى"وقد جــرى بها الظلم والعدوان والشر منذر
كما نصــبت فيها المشانق جهــرة لكل فتى حر من العــار ينفــر
وما كــان هذا الشعب يوماً عبيدهم ولكن عين البغى هيهات تبصر؟!
أمــن أجل أفاق يصيد حمامـــة تساق الضحايا كالذبائح تنحر؟!
وتشنــق بالحبل المهين رجولة تثــور لعرض يستبــاح ويهــدر
ويــؤخذ للسجــن البرئ تعسفاً ويجلد بالســوط الأبي الغضنفر
ألا إنــما هو الظــلم صــارخاً وهذا هو الكفر الذى ليس يغفر!!
متى كان فى شرع الحضارة عندهم إهانة شــعب للكرامـــة يثأر ؟!
متى كان فى القانون تشريد آمن وتخريب أحياء إلى الله تجأر ؟!
لذلك نادى بالتحرر (مصطفى) ففيم يضير الغاصبين التحرر ؟![1]

وتجسد تلك الأبيات ــ كما نرى ــ مظــاهر العنــت ، وصـــور العذاب ، وألوان الاضطهاد التى مارسها هذا العدو الوحشــي وأتباعــه الخونة المأجورون مع أبناء الوطن الأبرياء الكادحين ، مُمتهنين فى تلك الممارسات كرامتهم ،ونائلين من كبريائهم ، وغير معتدين بــآدميتهم ،

([1]) الديوان صـــ١٠٣، ١٠٤ .

مشيعين فى الأرجاء التخريب والفساد ، ضاربين فى ذلك بما تتشدق بـــه حضارتهم من المناداة بحقوق الإنسان ، والمحافظة على كرامته وآدميته .. ، ومن ثم حق لأبناء الوطن أن يثوروا على ذلك الواقع .. فكـــان أن نادى زعيم الوطن مصطفى كامل آنئذٍ بالتحرر ، محققاً بذلك حق وأمـــل الجميع .

وتشيع فى هذه الأبيات – كما نرى– الألفاظ الرائقة ، والكلمات المعبرة ، والصور البليغة ، والأساليب الدالة التى من شأنها جميعـــاً أن تُجسِّد حجم المأساة التى تعرض لها بنو الوطن ... حيث نلتقى ــ خـــلال تلك الأبيات ــ بكلمات ، وعبارات من مثل :جرى بها الظلم ... نُصـــبت فيها المشانق ... تساق الضحايا كالذبائح تنحر ، ، وتشـــنق بالحبـــل المهين رجولة ..

كما نلتقى بتلك التساؤلات المتتابعة الدالة المعبرة الناطقة بحجم وطبيعة تلكم المأساة ، والمجسدة لطبيعة وحقيقة مرتكبها:

متى كان فى شرع الحضارة عندهم إهانة شعب للكرامة يثأر ؟!

متى كان فى القـــــانون تشريد آمن وتخريب أحياء إلى الله تجأر

ونلتقى عبر تلك التجربة المثيرة أيضاً بهذا البيت الـــذى يؤكـــد الشاعر من خلال أسلوب القصر الكائن فيه حقيقة هذا التصرف المقيت ، وأنه ظلم بين ، وتعنت مقصود ، وجور ملحوظ ، وذنب عظـــيم لاتوبـــة منه ...:

ألا إنـــما هو الظلم صارخاً وهذا هو الكفر الذى ليس يغفر!!

ولنا أن ننظر بعين التأمل إلى تلك الصورة التشبيهية الرائقة التى تُمعن فى تجسيد مدى ما وقع على بنى الوطن من ظلم صارخ ، وتغنت بالغ من قِبل هؤلاء العُتاة قساة القلوب لا لذنب ارتكبه هؤلاء الضحايا، ولا لجرم وقعوا فيه !:

أمن أجل أفاق يصيد حمامة تساق الضحايا كالذبائح تنحر!!

ثم ها نحن أولاء نلتقى ثانية مع الشاعر الوطني محمد فضل إسماعيل فى إحدى قصائده التى صَور من خلالها ما وقع على كاهل أبناء وطنه من عنت وعذاب ، ومقاساة واضطهاد من قبل المستعمر المغشام ، حيث يشير فى هذه المرة إلى إحدى الغارات الليلية التى شنّها أعداء الوطن فى حرب العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م ، مجسِّداً مظاهر تلك الغارة ، ومُبرزاً وقعها على ربوع مصر وأبنائها .. حيث تعطلت حركة السير والملاحة فى القناة .. وتلبدت السماء بالغيوم ، وشوهت صفحتها بالسّحُب الناتجة من أدخنة المدافع والدبابات ، والناس جميعاً فى تخبط واضطراب .. حيث الليل الممتد بظلامه ، والرّهيب بسواده ، والمتوشح بقتامه ، ثم ها هى ذى الأطفال يشيع بينهم الهلع والفزع ، وكذا النساء فى الخدور يصرخن ويستغثن إزاء ما يشاهدن من ذلك الوابل من الرصاص الذى سرعان ما ينزل منهمراً على الأرض ، وكأنه المطر الغزير ، والسيل المدرار ينزل من السماء فيهطل على الأرض فيفجرُ فيها العيون.

والشاعر يُصور تعجبه ودهشته إزاء ذلك الخطر المُحدق وكأنه غير مصدق به؛ لما يقوم عليه من وحشية وبربرية وهمجية ، مشيراً إلى أنه صادر من قوم مُعتدين موغلين فى البغي ، ومُمعنين فى

الاعتداء ، ليس بينهم وبين أبناء مصر المجنى عليهم صلة ولا قرْبى .. لنستمع إلى الشاعر وهو يُجسد لنا تلك المأساة فى لوحة فنيـــة رائقـــة تفيض بالألفاظ والتراكيب والصور البليغة المعبرة .. حيث يقول :

بالذكريات طف بنايا شاعر ... واقرأ كتـــاباً حار فيه الغـــــابر

فى كل سطر منه غدر سافر ... له الحنـــايا فى الضلوع تلتهب

فى ليلة كالزمهريـــر جوُّها ... وللرِّيـــاح العـــــاصفات هوْلُها

دَهَى السَّفين فى القناة ما دهى ... وشوهت وجه السماوات السحب!!

فلا طُيور فى السماء تغتدى ... ولا نُجـــوم تبتغـــى للمُهتـــدى

فى ظلمة الليل البهيم الأسود ... هلا يبوح الليل بالسِّرِّ العجب؟!

على الضفاف رُوعت أطفالنا ... وفى الخدور استنجدت نساؤنا

إذ أمطرت فى لحظة سماؤنا ... أشباه جن فى ثياب من لهـــب

يا رب ما هذى السماء الماطره ... فيها أبابيل العـــذاب الطـــائره؟!

بل كيف دارت يا إلهى الدَّائره ... وما لأهل الفعل فينا من نسب؟![1]

والبيتان الأولان ينبئ الشاعر –من خلالهما –عن كثرة ما مـــرّ بمصر وأبنائها من محن ، وما وقع على كاهلها من مآس ، وما تتـــابع عليهما من نوازل تتقد منها الحنايا ، وتلتهب الضلوع ، وتذوب النفوس حسرة وكمدا ، وأن هذه المآسى فى تاريخ مصر إنما هى كتاب قد قلَّـــب

([1]) الديوان صـــ ١٥٧ .

الشاعر هنا إحدى صفحاته ، وبعضاً من سطوره !! دفعته لأن يتساءل مشدوهاًومتعجباً ، ممعناً فى تصوير مدى فداحة تلك المأساة!! :

يا رب ما هذه السماء الماطره فيها أبابيل العذاب الطائره!!

بل كيف دارت يا إلهى الدَّائره وما لأهل الفعل فينا من نسب ؟!

ومن بين صفحات ذلك الكتاب المأساوى من تاريخ مصر نلتقى مع الشاعر فى حديثه عن قناة السويس ، وكيف أن حفرها فى البداية قد جرّ على مصر الويلات وجلب عليها المخاطر، وحفها بالمهالك ، حيث أطمع فيها الدُّول الكبرى آنئذٍ فكان الاحتلال .. وكان الاغتصاب .. والشاعر كثيراً ما يلحُّ على هذا المضمون فى شعره فيشير إلى أن أبناء الوطن لم يُفيدوا فى البداية من أمر حفر قناة السويس ، ولم ينعموا بحفرها كما كانوا يرجون ويأملون ، فى حين نعم بذلك الخير واستأثر به العدو الغاصب ، والمستعمر الغاشم دونهم ، فلم يكن خير القناة يعود لأبناء الوطن – أولئك الذين كدُّوا وكدحوا فى حفرها ردحاً من الدهر ، وظلُّوا يُحرمون من هذا الخير سنين عددا إلى أن تم تأميمها ليعود رفدها ، ويئوب خيرها إلى العباد أصحاب البلاد أولئك الذين رووها من عرقهم ودمائهم ، وشقوها من مهجهم وأرواحهم.. لنعش مع الشاعر وهو يشير إلى ذلك المضمون خلال أبياته التالية .. حيث يقول وقد زاوج فى حديثه عن قناة السويس بين نفعها وضرها :

يا مهجة الدأماء كم لك من يد غرّاء ساطعةٍ على الأزمان

قربتِ أقطار البلاد شمالها وجنوبها فتقارب القطبان

ووصلتِ أشطان التجارة بعضها بعضا فكانت أمتن الأشطان

وتعارفت بيض الشعوب بسودها | من كل قاص فى البلاد ودان
لكن بقـــدر النفـــع كنت جنـــاية | من هولها قد زعزع الهرمان
ومصيبة نزلت بمصر فأصبحت | تبكى لـــها جزعاً بدمـــع قانى
ماذا جنى أبناء مصــــــر وإنهم | بين الورى لأئمة الإحسان ؟!
حفروك بالدَّم واثقين من المُنى | وبلوغ غايتهم من الرجحان!!
لكنهم رجعواْ بلا أمـــــل ومـــا | باءواْ بغيـــر مذلةٍ وهــــــوان
يا ليتهم لم يحفـــروك وليتـــهم | جعلوك مقبرة (لفردينان) !!
فاليوم كان على الأقل يريحهم | من ذلّ الاستعباد والعدوان[1]

ونرى الشاعر يلح على تجسيد مظاهر العنت والعذاب ، والمشقة والحرمان الواقعه على كاهل أبناء مصر الكادحين ــ وهم بصـــدد حفـــر قناة السويس ، مؤكداً تحسره الشديد إزاء ما حدث بعد حفرهـــا ، حيـــث عاد خيرها إلى غير أبنائها ، واستأثر به اللئام ، وخُـــص بـــه الكـــلاب غاصبواْ البلاد دون أصحاب البلاد .. حيث يقول فـــى كلمـــات مُعبـــرة ، وعبارات دالة ، وتراكيب موحية :

حفرناك بالدم فيما مضى | وكنا ضحاياك بين الأنـــام
وصلنا الحياة بأسبابها | فلم نلق غير حياة اصطدام
ولم نلق غير اعتداءٍ وبغى | ومأدبة دُس فيها اللئـــــام

([1]) الديوان صـــ ١٠٠ ، وفردينان ديليسبس – القائم على مشروع حفر قناة السويس آنئذٍ .

ولم نلق غير عناد الليـــالى   وما ساد فى جوفها من ظلام
فأغــرت فرنـــسا بأوطاننـــا   ولانجلترا طال ليل المقـــام
ثمانيـــن عامـــا شربنـــا بها   كئوس المذلّة فى كل عام!!
فكـــان الجـــــزاء كما نالنا   جـــزاء سنمار فيما أقام!!
أنغرس ورداً ونجنيه شوكاً   ألا إن هذى الأمور حرام؟!
بأي كتاب تساق الشـــعوب   لمقصلة الذبح سوق السُّوام؟!
وفى أيّ شرع تداس الحقوق   ونظمأ حين يجود الغمام؟!
عفا الله عنك قناة السويس   فقد كنت داء البلاد العقام!!
جرحتِ القلوب وسقتِ الخطوب   وردتِ الكروب وعز المنام
إلا أن مـــــاءك هــــذا دم   صببناه صبابتلك الرجـــام
وقد ولغت فيه شر الذئـــاب   كما حط فيه أخس الهوام
ومرّ بـــه كلُّ قـــــاص ودان   وطاف الشقاق به والوئام
ولم ندر يوم حفرنــــــاك أنا   سنُبلى بما لا يحب الكرام
فتحـــنا بك الرزق للعالميـــن   فعم .. وبتنا بغير الطعام
أردنا لمصر مكــــاناً علــيا   ولم ندر أنا بهذا نضام !!
ولم ندر أنا ســـنلقى احتـــلالا   وقيداً مُهيناً بغير احترام(١)

---

(١) الديوان صــــ ١٣٥ ، ١٣٦.

ويبدو لنا جلياً خلال تلك الأبيات كيف أن الشاعر يلح على إبراز وتجسيد تلك المأساة ... مكثفاً من الحديث عنها ، ومفصلاً القول فى كل جوانبها ، سواء من حيث ما لحق ببنى وطنه من ألم ومشقة بالغين فـــى أثناء حفر القناة ... أم من حيث حرمانهم من خيرهـــا ، ومـــنعهم مـــن رفدها .. أم من حيث كون القناة سبباً فى احتلال بلادهم ... ولعل هذا ما جعل الشاعر يلهج بهذه الكلمات البليغات ، ويتفنن فى إنشاء تلك الصور الرائقات ، حيث يقول :

ألا إنَّ مـــــاءك هـــــذا دم صببناه صبابتلك الرجـــام

وقد ولغت فيه شر الذئـــاب كما حط فيه أخس الهوام

فما أبلغ ، وأدل فى التعبير عن تلك المأساة من هـــذا التشـــبيه الذى جعل فيه الشاعر من ماء القناة دماً جاد به بنو مصر الكـــادحون ، وبذلوه من مهجهم ، وأرواحهم ، ومن أسف فقـــد تـــنجس هـــذا المـــاء الطاهر ، والدم الزكى ، حيث ولغ فيه هؤلاء الأوغاد .. وحط فيه أخـــس الهوام ، وهو يقصد بذلك : المستعمر الغاصب ، والمحتل البغيض.

ثم ما أبلغ تلك التساؤلات الإنكارية المتتابعة ، وما أشدها دلالـــة فى تجسيد مدى الظلم والعنت والإهانة والحرمان الواقع على بنى الوطن إزاء حفرهم تلك القناة!!، فلم يجنواْ من جهدهم سوى الحرمـــان ، ولـــم يحصدوا غير الهوان .. فقد جنوا من الورد شوكاً!! ومن الحصاد مراً !! فعفا الله عنك أيتها القناة !! يقول :

أنغرس ورداً ونجنيه شوكاً ألا إن هذى الأمور حرام؟!

بأى كتاب تساق الشـــعوب لمقصلة الذبح سوق السُّوام؟!

وفى أيّ شرع تداس الحقوق ونظمأ حين يجود الغمام؟!

عفا الله عنك قناة السويس فقد كنت داء البلاد العقام!!

وإمعاناً من الشاعر فى تجسيد حجم المأساة ، وتصوير طبيعتها هنا رأيناه قد وظف التراث العربى ممثلاً فى أحد الأمثال العربية الشهيرة ، هو :"جزاء سنمار".. وظفه فى أداء معناه ، وإبراز مضمونه هنا.. سائراً به فى نفس سياق الأبيات ، حيث يشير من خلاله إلى ماكان من جزاء المصريين " أبناء مصر " بعد هذا الجهد ، واللأى الشديدين ، والبذل والتضحية ، والصبر والأناة ، والعنت والاضطهاد فى حفر القناة من الحرمان من خيرها ، والحصاد المر من جنيها ... حيث نعم به المستعمر الغاصب ، واستأثر به دونهم ، تماماً مثلما حدث " لسنمار" ــ ذلك المهندس البارع فى التشييد والبناء ــ والذى شيد لأحد الأمراء قصراً تفنن فى إتقانه وإتمامه ، وبالغ فى تزيينه وتنميقه حتى بدا فى صورة جميلة ، وهيئة بديعة نادرة المثال ، وحتى يضمن الأمير ألا يبنى ذلك المهندس لأحد غيره قصراً على مثاله عزم على قتله مقابلاً بذلك الإحسان بالإساءة ، والعرفان بالجحود ، والنعمة بالنكران!! فقيل :" جزاء سنمار" ..وهكذا كان حال بنى الوطن إزاء قناة السويس آنئذٍ حيث عوقبواْ بالحرمان ، ومن ثم يمكن أن يقال عنهم " باءواْ بـ : جزاء سنمار ".

ثالثاً : حث بنى الوطن على العمل على ما فيه نهضة ورقى وطنهم ، ودعوته –أى الشاعر– إلى افتدائه بالنفس والنفيس ، وإلحاحه فى دعوته بنى وطنه إلى أن يتسلحوا فى جهادهم المستعمر ، والوقوف

فى وجهه بسلاح العلم والأخلاق ، مؤكداً أن ذلك هو الطريق إلى التحرر والسيادة ، والسبيل إلى التقدم والريادة .

كثيراً ما يهيب الشاعر ببنى وطنه صارخاً فيهم أن يتسلحوا بالعمل على ما فيه رقي ونهضة وطنهم ، وذلك من خلال أخذهم بأسباب القوة والنهوض فى محاربة الاحتلال البغيض ، والتسلح فى جهادهم ضد المستعمر الغصوب ، والوقوف فى وجهه بسلاح العلم ،والأخلاق..مؤكداً أن ذلك هو الطريق إلى التقدم والسيادة ، والسبيل إلى الريادة والتمكين .

ومن ذلك قوله يهيب ببنى وطنه داعياً إياهم إلى أن يرقوا وينهضو به ، وأن يخلصوه من كبوته ، ويقيلوه من عثرته ، مؤكداً ما للأخلاق والعلم من أثر قوي، ودور حيوي فى البناء والنهوض ، وأنهما سلاح الأقوياء ، والسبيل إلى النصر والتمكين :

فاجعلوا أيامكم أنشودة صوتها الإيمان من لحن الوفاء
وافتحو النصر باباً مغلقاً لم يكن مفتاحه غير المضاء
وخذو الأخلاق درعاً واقياً ليس كالأخلاق درع أو وقاء
وانهضوا بالعلم عن أجدادكم فهو فى الدنيا سلاح الأقوياء[1]

والشاعر فى البيت الثانى ــ ذلك الذى يؤكد فيه ما للأخلاق من أثر محوري ، ودور فعال فى بناء ونهضة المجتمعات ، فهي الدرع الواقى ، والحصن المنيع لكل مجتمع يبغى البقاء ، وينشد النماء ،

([1]) الديوان صـ ١٨٨.

ويأمل فى الإصلاح والبناء ، وبدونها ــ أى الأخلاق ــ تتهاوى أركان المجتمع ، وتتداعى أعمدته .. على نحو ما يفهم من قوله : ليس كالأخلاق درع أو وقاء !! .. الشاعر فى مضمونه هذا كان قريباً من قول شوقى رحمه الله ــ الشهير والمتكرر يرسى مبدءاً مهماً ، ويضع قاعدة راسخة ، ويقرر حقيقة ثابتة لا تتخلف قط ، ولا تغيب أبداً :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[1]

كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب[2]

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب[3]

والبيت الأخير يهيب فيه الشاعر محمد فضل إسماعيل ببنى وطنه أن يحيوا أمجاد أسلافهم ، وأن يبعثوا مفاخرهم ، ولا يكتفوا بالتشدق بها ، واجترار ذكرياتهم !! هذا أن أرادوا أن يكونوا أقوياء :

وانهضوا بالعلم عن أجدادكم فهو فى الدنيا سلاح الأقوياء

وفى قصيدته : "المعلمون والمعركة" يعلى الشاعر ويرفع من قدر وقيمة العلم والأخلاق ، مؤكداً ما لهما من أثر بارز ، ودور كبير فى بناء المجتمع ، والنهوض والارتقاء به : حيث يقول موجهاً بالحديث إلى قلمه ، ومتحدثاً بلسان جيش وطنه :

حدّث يراعى عن الأخلاق والأدب وادع الشهامة وارفع راية العُرب

([1]) الشوقيات : شعر المرحوم أحمد شوقى – ١٢/١ – الناشر دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان .

([2]) المصدر السابق – ٤٤/١.

([3])السابق ذاته ٦٣/١.

واقرأ على هذه الدنيا رسالتنا واضرب على الجهل بالأسداد والحُجب
فنحن جيشُ يرى التعليم عدتــــه سلاحــه قــوة الأقــلام والكــتب[1]

وهو يتحدث خلال تلك الأبيات ــ بلسان المقاتلين الــذين نــذروا أنفسهم ، وبذلوا أرواحهم وجادوا بها فى الذود عن أوطــانهم ، والــذب عن ثراها الطاهر ، وترابها الغالى ، مشيراً إلى أن هؤلاء الجنــود قــد فطنوا إلى أهمية العلم ، وأدركوا مدى أثره فى نفوســهم ، وقــوتهم ... فهو سلاحهم الماضى ، وسهمهم النافذ إلى قلوب أعدائهم ، الغائر فــى نفوسهم .

ويلح شاعرنا على تلك الفكرة ذاتها ، ويؤكدها فى موضع أخــر من شعره الوطني ، حيث يقرر ما للعلم من أثر كبير فى النفوس ، وأنه السبيل إلى رفعتها ، وتسنمها ذرا المجد والسيادة ، وهو أيضاً الســبيل إلى البناء والتشييد ، وفى المقابل يصور الجهل ، وكيف أنه السبيل إلى ضياع الكرامة ، وحلول الذلة والتبعية : حيث يقول :

هو العلم كم أحيا مواتاً وكم بـــــه تسلَّق أدراج السموات فرقد
وكم فى ظلام الجهل ضاعت كرامة وذل عزيز فى الحياة وسيد
فنحن إذا شدنا الحصون منــــيعة فالعلم أقوى ما عليه نشيد[2]

ولايخفى تعبير الشاعر بالضمير: " هو " ــ بجانب العلم ، ومــا يدل عليه من معنى القصر ، وكأن هذه الصفات التــى يثبتهــا للعلــم ،

---

(1) الديوان ــ صــ ١٨٩ .
(2) المصدر السابق – صـــــ٢٠٤ .

والآثار المترتبة عليه بعد ذلك إنما يختص به ، ولاتتعداه إلى سواه : هو العلم .. بجانب ما يُشعر به ذلك التركيب من إثبات صفات العظمة ، وبالغ الأهمية ، وجليل النفع بالنسبة للعلم والعلماء .

كما لايخفى تعبير الشاعر بجانب العلم والجهل بكلمة : " كم " وما تدل عليه هنا من التكثير الذى يؤكد المعنى ، ويقويه فى كلٍ :

هو العلم كم أحيا مواتاً ....

وكم فى ظلام الجهل ضاعت كرامة وذل عزيز فى الحياة وسيد

ولا يخفى أيضاً تلك المقابلات الكائنة بين حالي العلم والجهل : وموقع أصحابهما ، وما تُحدثه تلك المقابلات من تأكيد المعنى وإبرازه . فبضدها تظهر الأشياء .. والضد يُظهر حسنه الضدّ .

وعن العلم والثقافة وكيف أنهما عدة المجاهد فى هذه الحياة ، وسلاحه الذى يُشهره فى وجه الاعداء ، وهما أيضاً النور والضياء الذى تتبد بهما الظلمات ، وتنقشع الجهالات ، وهماالسبيل إلى الرفعة والسؤدد ، معبئاً بذلك شعور بنى وطنه ، ومذكيا روح التوثب والنهوض فى نفوسهم ، حيث يقول :

هذى الحياة هى الجهاد فشمر ومن الثقافه خُذ سلاحك واغبُر

كن كوكباً ما بين قومك هادياً وابعث شعاعك بالضياء ونور

هيهات يوماً ان يقال له امرؤ من عاش أعمى القلب لم يتبصر!![1]

([1]) الديوان – صـ١٩١.

ومن النماذج الجيدة ، والمثيره فى شعر محمـــد فضـــل إســـماعيل والتى يدعو فيها بنى وطنه إلى اليقظة والحرية والنهوض ، ومناضـــلة الاحتلال الغاصب ، والارتقاء بالوطـــن ، والعمـــل علـــى مافيـــه بنـــاؤه ونهضته ، وسيادته وتقدمه ، قوله يهيب ببنى وطنه ويصـــرخ فـــيهم ، معبئاً شعورهم ، ومستنهضاً هممهم ، متوسما فيه الخير والنفع لوطنهم وما ينتظرهم من دور إيجابي ، وأثر محوري فى بنـــاء ونهضـــه ذلـــك الوطن :

فواجب الشعب إيمان بثـــورته والاتجاه لجني الخـــير والثمـــر
والاعتصام بحبل الله معتمـــــداً على العزيمة فى الأعمال والفكر
يدعو الى الخير مدفوعاً بعاطفة لا تســـتريح إلى شر ولا ضرر
ثوروا على كل معوج ولا تثقوا بالمستخف ولا بالمارق الأشـــر
فمصر ثائرة فامضـــو بها قدماً نحو الرقي فأنتم خيـــر مدخر[1]

..وهكذا يبدو شاعرنا –خلال تلك التجارب – فى صورة المحـــب لوطنه ، الغيور على حرمته ، الذى يأمل له كل تقدم وازدهـــار ، ورقـــي واستقرار ، لافتاً فى أثناء ذلك أنظار بنى وطنه ، ومثيراً انتباههم إلـــى الصراط المستقيم ، والسبيل القويم نحو البناء والإصلاح : كل فى موقعه يؤدى ما عليه من دور يُرجى ، وواجب يُنتظر منه ، وأمل يُعلق عليه .

([1]) الديوان صـــــ١٤٢.

رابعاً : الإشادة بزعماء الوطنية ، وباعثى نهضتها ، وقادة الأمة المصرية ، ودعاتها إلى الحرية والاستقلال ، والنهضة والبناء ، والتنويه بجهودهم ومناقبهم لتتأسى بها الناشئة ، وتقتدى بها الأجيال .

لقد جادت مصر بالعديد من أبنائها البررة ، ورجالها المخلصين الذين طالما أدوا ما عليهم من واجب تجاه وطنهم ، فكم استجابو لندائه ، وردوا لهفته ، وأجابو صراخه ، وكم قادوا الثورات ، وكم نظموا الحركات الوطنية واقفين فى وجه المستعمر البغيض الذى كان جاثماً على صدر وطنهم ، سنين عدداً سامهم خلالها سوء العذاب ، ومناهضين إياه من أجل مصر الحبيبة التى يبغون لها كل رفعة وسيادة ، وتقدم وريادة ، وبخطبهم البليغة ، وكلماتهم الثائرة اذكوا الروح الوطنية فى نفوس المواطنين .. وعلى الإجمال كان هؤلاء القادة والزعماء معقد أمال بنى وطنهم ، وموضع إعجابهم ومناط فخرهم وتقديرهم ، وترجماناً صادقاً ، ولساناً معبراً عن آمالهم وآلامهم .. فكانوا لذلك خليقين بالتقدير ، جديرين بالثناء على مر الدهور وتعاقب العصور ...

وانطلاقاً من حب وتقدير الشاعر إياهم بصفته واحداً من أبناء الوطن راح يشيد بهؤلاء ، ويتغنى بأثارهم الجليلة ، وانجازاتهم العظيمة ، حيث نراه يشيد فى شعره بهؤلاء الزعماء من أمثال : مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، وحافظ إبراهيم ــ شاعر الوطنية الكبير، وصاحب الأشعار الكثيرة فى حب الوطن، والغيرة عليه إما مادحاً ، وإما راثياً.. مؤكداً كيف كان هؤلاء الرجال اللسان المترجم ، والترجمان الصادق المتحدث بأمال وآلام وهموم وتطلعات وطموحات بنى وطنهم ...

ويطيب لنا أن نحيا مع الشاعر فى أبياته التالية ــ تلك التى يشيد فيها بربان حاذق من قادة الحركة الوطنية ، وفارس فذ من فرسان الدعوة إلى الحرية والاستقلال ، والسيادة والارتقاء ، والنضة والبناء فى مصر آنئذٍ " هو الزعيم مصطفى كامل " حيث ينوه شاعرنا بمواقف هذا الرجل الشجاعة ، وواقفاته المشهودة ــ تلك التى وقفها فى وجه المستعمر الغاصب متحدثاً بلسان قومه ، وبضمير جماعته، مطالباً بحقهم فى الحرية والاستقلال ، والكرامة والإباء والنهضة والبناء ، متخذاً من خطبه الرنانة ، ومقالاته الجريئة أداة ومنبراً يجهر من خلالهما فى التحدث بآلام وآمال وطموحات بنى وطنه، حيث يقول :

فهل يعرف المصرى ما قبر مصطفى ومن (كامل)هذا إذا اهتز منبر؟!

ومن صاحب الصوت المدوى الذىعلا ينادى بتحقيق الجلاء ويجهر

ومن علم المحتل أن حقوقنا حقوق عليها أعين الشعب تسهر

ومن كان فى الوادى زعيماً فؤاده بمصر وبالإيمان بالله يعمر

ومن صاح فى قصر الدوبارة صيحة كضرغامة من جانب الغار يزأر؟![1]

والشاعر يشيد ــ من خلال تلك التساؤلات التقريرية المتتابعة ــ بذلكم الزعيم ، منوهاً بشخصه ، ومشيداً بعظيم قدره ، وجليل نفعه فإذا كان قد ثوى بجسده ، وذوى بعينه فأن آثاره الباقية ومواقفه الجريئة

([1]) الديوان صـ١٠٣ ، والضِّرغام ، والضِّرغامة : الأسد ، ورجل ضرغامة : شجاع .. فإما أن يكون شُبه بالأسد ، وإما أن يكون ذلك أصلاً فيه .. اللسان – مادة ضرغم ٥ / ٤٩٧ ، والزئير : صوت الأسد فى صدره..يقال زَأر الأسد بالفتح ويزأر ، وزئيراً:صاح وغضب .. اللسان – مادة زأر–٣٢٧/٤ .

التى تفيض بخطبه الرنانة ، وكلماتــه المدويــة ، وصــوته الجهيــر ، وعباراته المجلجلة التى طالما كانت تهز المنابر هــزاً فــتملأ الأفــواه ، وتقرع الآذان واقعة على المستعمر وقوع الصاعقة ، وماضــية مضــاء السهام النافذة ، والأسلحة الماضية ، مؤكدة أن للوطن أعيناً تسهر على المطالبة بحقه فى الحرية والاستقلال والنهضة والبناء فى ثبات وإصرار وشجاعة واستبسال .. كالليوث فى عرينها ، والصقور فى أوكارهــا ... يحدوه فى ذلك ويدفعه إيمان صادق ، وعقيدة صــحيحة .. يــأتى حــب الوطن وافتداؤه بالغالى والنفيس مظهراً من مظاهرهما ، وجزءاً أكيــداً من كيانهما :

..... فؤاده بمصر وبالإيمان بالله يعمر

والأبيات المذكورة تقرر كُلها حقائق ، وتؤكد مواقف اضطلع بها ذلكم الزعيم ، وهى جميعاً تنطلق من خلال مطالبته بالحرية والاستقلال ، وصراخه فى المستعمر البغيض بأن يجلو عن البلاد ، ويرحل عنها إلــى حيث لا رجعة .

ثم يبرز الشاعر مدى حُب ذلك الزعيم للحرية والنضال ، ويؤكــد حرصه على تحقيقهما من خلال أبياته التالية – تلك التى يشير فيها إلى دور مصطفى كامل البارز ، وموقفه الجــرئ فــى المطالبــة بالحريــة والاستقلال ، متخذاً من صحيفة " اللواء" مُعسكراً يُصــوب مــن خلالــه قذائف من نار يُلقى بها فى وجه الغاصبين من المســتعمرين وأذنــابهم ماضياً فى سبيل ذلك ، مقداماً كالليث الذى يذود عن عرينــه ، صــابراً على الأذى ،محتســباً لا يهــن ولا يحــــزن ، ولا يجــبن ، ولا يرجــع القهقري ، كاشفاً عن خبيئة ضــعاف النفــوس والخــائبين ، ومفســداً

تدابيرهم التى تُدبر بليل ، ومحبطاً مكائدهم التى تُحـــاك فـــى الخفـــاء ، مُشيداً بعنايته الفائقة ، واهتمامه البالغ بإصلاح شأنه ، حـــاملاً مشـــعل الثورة ومعول البناء بين بنى وطنه يُرشدهم إلى ما فيه الخير ، موقظـــاً شعورهم نحو رفض الأعداء ، والوقوف صفاً فى وجههـــم ... ســـاعتها ينعم بنو الوطن بخيراته ، ويحظون بثرواته – يقول :

وجرَّد من صدر اللـــــواء كتيبـــة لها الطّرسُ حد واليراعة مشفر
وصوّب نحو الغاصبيـــن قذيـــفة هى النّار أنى صـــوبت تتسعـــر
وقام كليث الغاب يحمـــى عرينـــه صبوراً على الأهوال لا يتقهـــقر
ودعا لا كتساح المخزيات مُفضحاً مكائد كانت فى الخفـــــاء تدبـــرُ
وثار على تلك الرءوس التى غدت لغير احتـــلالٍ مخجـــل لا تفكـــر
فقام إلى التعليم يُصلـــح شأنـــــه كما كان معروفاً فى النـــاس يأمر
ويهدى إلى الحق المبين خصومه وبالخُلق العالى على الخصم يظفر
ويُرشد فـــــلاح البـــــلاد لأرضه وكيف يُربي الزرع والزرع أخضر؟!
وكيف يكون المال فى جيب أهله وكيف عدوالشعب بالشعب يُقهر؟![1]

وهكذا يبدو مصطفى كامل ــ خلال تلك الأبيات ــ فـــى صـــورة الوطني الثائر ، والمُحبُّ الصادق فى حب وطنه ، والغيور على حرمتـــه

([1]) الديوان صـــ ١٠٣ ، ١٠٤، والطِّرس : الصحيفة .. والجمع أطراس وطروس – اللسان مادة طرس ٥/٥٨٥ ، وشفر كل شئ ناحيته ، والشَّفرة بالفتح : الســـكين العريضة العظيمة .. وشفرة السيف حده – اللسان– مادة شفر – ٥ /١٤٢ ، ١٤٣ .

.. والذى يأمل له كل نهضة وبناء ، وتقدم ورخاء ، جاهراً بالحق – من خلال مقالاته الوطنية الثائرة ،وخطبه الحماسية الملتهبة عبر صفحات جريدة اللواء ، ومن خلال المنابر التى طالما هزها ، وحرك ساكنها ، ملهباً مشاعر بنى وطنه ، ومذكياً فى نفوسهم روح الثورة والإباء ، والتوثب والنماء ... كما يبدو فى صورة الاجتماعي المُصلح الذى يُعنى بإصلاح شأن وطنه ، وتقويم مُعوجه ، ورفعة أبنائه ، وتأكيد الشعور باليقظة والوعي فى داخلهم ... وحقهم فى الحرية والاستقلال كى ينعموا بخير وطنهم دون عدوهم ، وهو – أى ذلك الزعيم – لا يجد أنجع فى النهضة والبناء ، والرقي والنماء من التعليم ، وإصلاح شأنه ، لاسيما إذا ما قرُن بالتربية والتهذيب الخلقي حيث نسب إليه –رحمه الله – ذلك القول الشهير : " إنى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة " .

ونلتقى بفارس آخر من فرسان الحركة الوطنية ، ورائد من رواد الدعوة إلى الحرية والاستقلال فى مصر ، وخليفة مصطفى كامل " رحمه الله " فى ميدان الوطنية ، إنه "محمد فريد" ــ رحمه الله ــ حيث نقف مع الشاعر خلال أبياته التالية ــ وهو يشيد بجهود ذلكم الزعيم المخلصة ، ودوره المحوري فى بناء ونهضة مصر من خلال وقوفه الجرئ فى وجه المستعمر الغشوم يحاربه راغماً إياه على الجلاء عن الوطن ، متحملاً فى سبيل ذلك الويلات ، ومستهيناً المخاطر ، حيث زُج به ــ وهو ابن الأكارم ، والنسب العالى ، والترف والحياة الوداعة ــ فى السجن ، ونُفى خارج وطنه فلم يهن ، ولم يجبن ، ولم يتراجع !! .. ها هو ذا الشاعر يؤكد تفوق ذلكم الزعيم ، وتبريزه فى ميدان الوطنية ،

وكونه فى الصدر والطليعة بين فرسان الحركة الوطنية من خلال تساؤله فى قوله :

وهل يُرى كفريد فى طليعتهم ... إن أعوز الغاب يوم الهول رئبال؟!
عن مصطفى كامل أدى رسالته ... وزاد فيها وما راعته أهــوال
هذا المجاهد لم يعرف له مثل ... ولا شبيه وإن ساءته أحــوال!!
هذا ابن أكرم آباء له نســب ... عال تكافأ فيه العـــم والخال!!
قد عاش حُراً أبي النفــس له ... من دون حرية الأوطــان آمال
له ضمير لنور الحق مندفعاً ... بقوة الله لــم يمســـــه إذلال
ما غرّه منصب أو غرّه نسب ... ولا تضارب فيه القــيل والقال
تبقى الكرامة فى الدنيا مخلده ... يذهب المنصب المرموق والمال
هذى الرجولة كم كانت مركزة ... وكم بها ضربت للناس أمثال!!
هى الكرامة فى أعلى مراتبها ... فى كل قلب لها رمز وتمثــال[1]

وهذه الخــلال الكريمــة ، والشــمائل العظيمــة التــى يتــوافر عليهاشخص ذلكم الزعيم لا يشعر بها الشاعر وحده ، وإنما هى محفورة فى قلوب بنى الوطن المحبين المخلصين .. لهم فيها الأسوة الحســنة ، والقدوة الصالحة ، فهى الأنموذج المنشود ، والمثال المُبتغى :

..... " وكم بها ضربت للناس أمثال "

..... (وهي) : فى كل قلب لها رمز وتمثال

([1]) الديوان صـــــ١٠٦ ، والرئبال : من أسماء الأسد والذئب .. وقيل الرئبال : هو الذى تلده أمه وحده .. اللسان – مادة رأبل – ٦/٤.

وسيرة ذلكم الزعيم بما تفيض به من مواقف مضيئة ،وما تعمر بـــه من جوانب مشرقة تنطق كلها بعظمته وإنســـانيته وحبـــه الشـــديد لوطنه ، وإخلاصه النادر فى ذلك الحب ــ تلكم السيرة من هول وعظـــم مافيها من مواقف يشيب لها الولدان ...

ومنها ذلك الموقف الذى تعرض فيه للسجن والتعذيب من أجـــل أن يتحول عن مبادئه ، وينثنى عنها ، ومن ثم يظفر بحريته ، ولكنـــه ــ وهو الحر الأبى النفس ، الثابت الجأش ، الشجاع القلب ، صاحب الهمة العالية ، والإرادة القوية ، والنفس الكريمة ، والمشاعر الصادقة .. أبى إلا أن يدخل السجن مؤثراً وطنه على نفسه معبراً فى ذلـــك عـــن حبـــه الشديد ، وإخلاصـــه النادر لوطنه ، وثباته فى ذلك الحـــب ، وإصـــراره عليه ، حيث لم تمنعه غياهب السجن من أن يُغرد بحب وطنـــه ، ولا أن يشدو بإيثاره ، وافتدائه بنفسه وماله .. لنا أن نحيـــا فـــى ظـــلال ذلـــك الموقف المُشرق ، والجانب المُضئ من حياة ذلكم الزعيم ــ والذى جعل منه واحداً من الشرفاء الأحرار أصحاب النفوس الأبية، والهمم العالية ، والعزائم القوية ، لنا أن نحيا مع تلك المعانى من خلال قول الشاعر :

ألقوه فى الجب تحطيماً لمبدئه فلم يحطم ولم تهدمه أغـــلال
قد ساوموه على الإفراج يُمنحه فقال لست على الإفراج أحتال
السجن للحر يذكى فيه ثـــورته لا تمنع الحر أبواب وأقفـــال[1]

ونمضى مع الشاعر خلال رحلته مع ذلكم الزعيم ، وعبـــر أبيات قصيدته تلك .. فنلتقى مع الأيام الأخيرة من حياة " محمد فريد " ــ

([1]) الديوان صـــ ١٠٦ .

تلك التى مضاها وحيداً غريباً عن الأهـل والأحباب ، فلا مـن زوج ولا ولد ، ولا من خِلٍ ولا حبيب ، ولا من أنيس ولا جليس ، مما أثـر فـى قواه ، وفت فى عضده ، ونال من نفسه ، وهد كيانه ، فلقى ربه غريبـاً بعيداً حيث برلين ــ تلك التى شرفت به حياً ، وميتـاً ، حيـث شـرفت ربوعها باحتضان جثمان ذلكم الزعيم الطاهر ــ صاحب القدر العـالى ، والمنزلة الكبيرة " ليئوب من غربته ، ويعود من وحشته إلى حيث وطنه الحبيب ، وبلده الغالى ليوارى فى حضن ثراه الطاهر ــ الذى طالمـا ذاد عنه ، وقاتل باذلاً نفسه وماله .. أقبل نحو ذلك الثـرى تحملـه جاريـة تمخر الغباب ، وتشق غمار البحار فى حيوية ونشاط ، وشوق وتلهف ، مُيممة وجهها شطر مصر ، قاطعة المسافات فى زهو وخيلاء بمن تحمل .. وهنا يرسل الشاعر إلى روح ذلكم الزعيم الراحل تحية وفاء وعرفان ، وتقدير وإجلال تتجدد بطلوع الشمس فى كل نهار ، جاعلاً من حياته " (سيرته ومواقفه) " قدوة صالحة ، وأنموذجاً يحتذى ما دامت الحياة :

يقول محمد فضل إسماعيل :

فودع الأهل والأوطان مغترباً ... وفى الفؤاد لهيب النار فعـال

إلى أوروبا بلا زوج ولا ولـد ... ولا حبيب له عطف وإقبـال

إلى الجهاد عنيفاً وهو مغترب ... حتى ألم به ضيـق وإقـلال

ومات ــ وهو غريب الدار منفرد ... وما أحاط به أهـل وأنجـال

ضمته برلين جثماناً فشـرفها ... بين المقادر فى الأعلام مفضال

وعاد لكن على التابوت تحمله ... سفينة أقبلت فى اليـم تختـال

فيا فريد سلام الله ما طلعـت   شمس فأنت لنا نهج ومنوال !![1]

وسعد زغلول كان ــ هو الآخر فارساً مقداماً ، ورائداً فـذاً مـن فرسان ورواد الحركة الوطنية فى مصر .. أولئك الذين دعوا مخلصـين إلى الحرية والاستقلال ، والنهضة والبناء ، يحدوهم فـى ذلـك حـبهم الشديد لمصرـ ذلك الذى استقر فى أعماقهم ، وسرى فـى عـروقهم ، واختلط بدمائهم ، وتربع فى كيانهم .. وهو ماثل أبداً فى وجـدانهم ، لا يغيب قط عن ذاكرتهم .. ولم يفت شاعرنا أن يشـيد بـذلكم الـزعيم ، مُنوهاً بحبه الصادق لوطنه ، وعلو همته ، وصـدق عزيمتـه ، وشـدة إصراره فى العمل على ما فيه بناء ونهضة وحرية واستقلال بـلاده ... ومن ذلك قوله يُجسد مدى حُب سعد زغلول لوطنه ، وصدقه فـى ذلـك الحُب – الذى ملك عليه كيانه فغدا كل شئ فى حياته ... ومن ثـم بـات محور اهتمامه ، وجوهر تفكيره ، ومناط شغله ، ومبلغ علمه ، وأكبـر همه :

كم بات مهتماً بمصر وأمـرها   حتى ليذكـرها بطيف رقـاده

بل كم تحمّل فى الوفاء مصاعباً   شتى .. فلم يلجأ لغير سـداده

بطل لعمرك لن يخور عزيمـة   مهما تراءى الدهر فى أحقـاده!!

خُلُقٌ أغر وهمـة وعزيـمة   فى المجد لم تعرف سوى أمجاده[2]

ويناجى شاعرنا بعد ذلك سعداً فى أثناء سفره من أجل وطنـه ، مُؤكداً صادق حبّه لمصر ، وبالغ حرصه على بنى وطنه ، داعياً لـه أن

([1]) الديوان صـ ١٠٧.

([2]) الديوان – صـ ١٠٩.

يئوب سالماً ، وأن يبقى دائماً عالي الهمة ، أبي النفس ، قوي العزيمة، وأن يظل لمصر وبنيها الموئل الحصين الذى يُهرع إليه فى كل نازلـــة ، وأن يمده الله بعونه ومدده ، حيث يقول :

يا أيها، الشيخ الذى شهد الورى   مقــدار لوعــته علـــــى أولاده
عد للكنانة ســــيداً لــم يدخر   جهداً بمصر على عظيم جهاده !
فلأنت من يُرجى لكـــل ملمّــة   ولأنت طالع مصر فى إســــعاده
يا سعد دمت لكل مجــد غــاية   وأمدَّك الرحــمن من إمــداده!![1]

والبيت الأول يؤكد من خلاله الشاعر ، ويبرز مدى حُب وحنـــو وحدب وحرص ذلكم الزعيم إزاء بنى وطنه ، وفى التعبيـــر بكلمـــة : " أولاده " هنا ما يؤكد ذلك الحُب ويُشعر بالقرب والحُنو فهى تجسد ســعداً فى صورة الأب الحنون على أبناء مصر الذين هم أولاده وذووه .

وفى موضع آخر من شعره يُشيد الشاعر بجهود ذلكــم الــزعيم المخلصة فى المطالبة بالحرية والاستقلال وإيقاظ روح النهضة والتوثب والوعي بين المواطنين ، سائراً فى ذلك على درب الــزعيمين مصــطفى كامل ، ومحمد فريد ، ومكملاً لمسيرتهما ، ومترسِّماً خطاهما ، ماضــياً فى ذلك لم يثنه نفي ، ولم يخالطه ارتياب ، ولم يعقه اضطهاد ، بل كـــان فى ندائه بالحرية والاستقلال حرباً شعواء علـــى المســتعمر الغشــوم ، يُفحمه بخطبه الثائرة ، ومقالاته الحماسية ، وكلماته الملتهبة التى تُشبه ــ فى تدافعها وتتابعها ــ السيل المدرار ، مؤدِّياً بذلك مـــا عليـــه مـــن

(1) الديوان– صـــ ١٠٩.

واجب آمن به ، واعتقد فيه ، وما حُمِّل من أمانة ثقيلة أتى إليها راغباً مختاراً إزاء وطنه الغالى ومصره الحبيبة ، متسماً بالصدق والوفاء ، حيث تنمُّ أفعاله عن أقواله ، وتدل عليها ، وتنطق بها ...

يقول الشاعر :

كذلك كان سعد فهو حي ... وفى تاريخه العجب العجاب

أقام لمصر مئذنة يُدوّى ... بها الصوت الجهير المستجاب

وعلَّمها الطموح إلى حياة ... بها النفس الأبية لا تصاب

ولقنها الكرامة فى دروس ... على صفحاتها عكف الشباب

وكان شبيه صاحبه عرابي ... له من صادق العزم الركاب

وتابع كاملاً وحذا فريداً ... ولم يقعده نفي أو عذاب

ونادي بالجلاء وكان حرباً ... على المستعمرين فلا يُهاب

لمست وفاءه فلمست عهداً ... وثيقاً لا يخالطه ارتياب

وأعجبنى به فى القول صدق ... وفى الأعمال إخلاص يُثاب

إذا المحتل راوغ فى سؤال ... فبالإفحام يحضره الجواب

وإن صعد المنابر فهو فيها ... شبيه السيل يدفعه الخطاب

تقدم باسم أمته يُنادى ... بحقٍ دونه تمضى الرقاب

فكان على أمانته حريصاً ... له فى الله والوطن احتساب

وفى إيمانه بالحـــق عـــزم تُدكّ أمامه الشمّ الصّـــلاب [1]

ثم يجسد الشاعر موقفاً من المواقف المضيئة فـــى حيـــاة ذلكـــم الزعيم ، حيث نفيه إلى "مالطة" من قِبل أعـــداء الوطن إثناءً لـــه عـــن مبدئه ، ووقوفاً فى وجهه ، كى يتحول عن مواقفه ، ويرجع عن مطالبه .. وقد نفوه إلى هـــناك وحيداً فريداً فأغضـــب ذلـــك الشـــعب ،و أثـــار حفيظته ، فثار ثورته ، وغضب غضبته ، فراح ينادى بعودة فارســـه ، وأوبة قائده ، ليرجع سعدُ إلى وطنه رافع الرأس ، عالى الهمة ، شـــديد البأس ، لم يهن ، ولم يستسلم ولم يجبن ، ولم يخف من وعيـــد ، ولـــم يرهب من منية ، وإنما عاد أقوى مما كان يمضى فى تحقيق مطالب بنى وطنه واثقاً ، عازماً على ألا يتراجع ما دام هناك احـــتلال واغتصـــاب .. يقول الشاعر :

ففى (مالطة) وغول النفى فيها له ظفر يغـــــير به ونـــــاب

ففيها كان محتســــــباً رهيناً ولا أهل هنـــــاك ولا صحاب

فثار الشعب ثـــورته ونـــــادى بعودته وكـــان له الغـــــلاب

أُعيد لمصـــــــره سعد عزيزاً فشع النور وانقشـــع الضباب

فلم يركن إلى خور وضـــــعف وجدّ به لغـــايته الطــــلاب

ولا خاف الوعـــيد والمنـــــايا ولم يأخذه فى الحق العتـــاب

وجدد سعيه لم يخش ســـجنا ولم ترهبه إن شرعت حراب

وأقسم أن يجـــــاهد غير وانٍ ولا يبقى احتلال واغتصاب!! [1]

([1]) الديوان – صـــ ١١٥ ، ١١٦ .

وحافظ إبراهيم ــ شاعر النيل ، وترجمان الشعب ، ولسان حال المجتمع المصري ، والمتحدث بآماله وآلامه ، والمجسّد لواقعه ، والمُخلِّد لأبطاله ، والمشيد بجهادهم وجهودهم فى المطالبة بالحرية والاستقلال ، والدعوة إلى اليقظة والنضال .. ذلكم الشاعر كان له نصيب من التحية والتقدير عند شاعرنا ــ بصفته جزءاً لا يتجزأ من الوطنيين المخلصين فى عصره ؛ بما أسهم به فى شعره فى إذكاء روح الوطنية فى نفوس بنى وطنه ، وبث روح اليقظة والوعي بينهم... لنستمع إلى الشاعر – وهو يشير إلى ذلك – مرسلاً إلى روح شاعر النيل تحية وفاء وتقدير ، وعرفان وتبجيل ، ومُخلداً ذكراه فى عيد الجلاء – ذلك الذى طالما انتظره ، وأمل فى تحققه ، وتاقت نفسه لحدوثه ... يقول الشاعر :

قد كُنت فى الشعراء أول صيحة دفعت بنا للثورة البيضـــاء

هل مرّ بالخلد الجـــلاء وعيده أو هل أتاك النيل بالأنبـاء ؟!

....

ماذا تقـــول اذن إذا ما جئتنا ورأيت أعجب ما يراه الرائى؟!

حيث الحياة كما اشتهيت وفوق ما صورت من مُثلٍ ومن آراء [٢]

ثم يوقفنا الشاعر بعد ذلك على جانب مضئ من جوانب شعر حافظ ابراهيم الوطني ، حيث يشير إلى تنويهه فى شعره بزعماء الوطنية ، وإشادته بجهودهم فى المطالبة بالحرية والاستقلال فى عهده

([١]) الديوان– صـ ١١٦ .

([٢]) المصدر السابق – صـ ١٣٩ .

وقبله ،مطمئناً روحه الخـــالدة بأن التاريخ لـم يعـدم بعـده القـادة المصلحين ، والأحرار المناضلين ، والوطنيين الصادقين مـن أمثـال : جمال عبد الناصر – ذلك الزعيم الذى جاد به الزمان ، وتحقق على يديه للوطـن النصر والفخار ، يقول :

أطريت همّة (مصطفى) ومضاءه وإلى (فريد) سقت خير ثناء

وبحبّ(سعد)كم شدوت وكم جرت لك مدحة كالدّرة العصمـــاء

ماذا أقـــول إذن إذا مـا جئتنا ورأيت كيف مواقف الخلصاء

(فجمال عبد الناصر) ازدانت به كتب الوفاء وصفحة الزعماء

رجل به جاد الزمان فلم يـــزل يُملى عليه إرادة العظمـــاء

كتب الجـــلاء بخطه فى صفحة منشورة فى قوة ومضـاء[1]

خامساً : الإشادة بالآثار الإيجابية ، والثمار الطيبة لثورة يوليو ، وإبراز صداها على بنى الوطن آنئذٍ.

الناظر فى شعر محمد فضل إسماعيل الوطني يجد هـذه الفكـرة تشغل مساحة كبيرة فيه ، حيث نراه يُعدّد الآثـار الإيجابيـة ، والثمـار الطيبة التى لمسها أبناء مصر ــ أولئك الذين عاشوا فى ظل تلك الثورة المجيدة عهدا جديداً نعموا فيه بـالأمن والرخـاء ، وحظـوا بالحريـة والاستقلال بعد أن محت تلك الثورة من الأرض الفساد ، وقضـت علـى الطغيان ، ووقفت فى وجه العـدوان ، وطهّـرت الـبلاد مـن رجـس المستعمرين الأوغاد ، وسوّت بين الطبقات ، وجعلت خير الـبلاد لكـل

([1]) الديوان صـ١٢٣ .

العباد ، فلا راس مالية ، ولا إقطاع .. وعمّ بها فى الأرجـــاء النهضـــة والبناء ، وشمل الإصلاح كل مرافق الحياة ، وجنى أبناء مصر ماغرسه الأجداد ، وزرعه الآباء ... حول هذه الآثار الإيجابية العديـــدة .. دارت العديد من تجارب الشاعر الوطنية ، وقامت الكثير من قصائده فى ذلـــك الاتجاه ... ومن ذلك قوله من قصيدة له بعنوان :" ثورة صنعت جيلاً ، وبعثت شعباً " يشيد بذلك اليوم الأغرّ، والفجر الميمون على أبناء مصـــر جميعاً ، مُفاخراً به ، ومزهواً ، ومُباهياً على ما ســـواه مـــن الأيـــام ... وحُق له ذلك ؛ فقد زفَّ لمصر ، بل وللعروبة الخير والسرور ، والبشـــر والحبور ... فهو عيد حل ببركته على الأرجـــــاء ، وحظـــي بـــالخلود والبقاء ، محيياً أولئك النفر الأشـــاوس الـــذين قـــادوا حركـــة التحـــرر والاستقلال من خلال ذلك اليوم المشهود الذى تُباهى به مصر وتزهـــو ، والذى تجاوبت فيه شمس النهار مـــع أولئـــك الأبطـــال تُحيـــىّ صـــادق عزمهم ، وشرف مقصدهم:

سل الثلاثة والعشـــــرين عن أمم ما زف يوليو لوادى النيل والهرم!!

سل غُرّة الصبح عن يوم به طلعت شمس النهار تُحيىّ صادق الهمم!!

وكيف جـــــاءت على آثارها رُسُلُ قامت لهم هذه الدنيا على قدم ؟![1]

وهذه التساؤلات الواردة فى تلك الأبيـــات يُشـــيد الشـــاعر مـــن خلالها، ويتغنى بذلك اليوم المشرق ، والصباح المضئ الذى تنفسّت فيه مصر وأبناؤها نسائم الحرية والعزة والكرامة ، جاعلاً منه يوماً خالـــداً عبر الأزمان .. وحُق له ذلك ! وهو – أى الشاعر – يهيب بذلك اليـــوم

([1]) الديوان صـــ ١٢٣ .

أن يزهو ويفاخر فيُداخله الفخار والسرور ، وتتنابه الفرحة والحبور ... فهو نسيج وحده بين الأيام ،فقد زفّ لمصر وأبنائها الفرحة والسرور .... وأعاد لهما الكرامة والشموخ .. وتلك التساؤلات وردت على سبيل المجاز .. حيث جعل الشاعر من ذلك اليوم عاقلاً يُسائله ، ويردّ عليه السؤال .. وهو لا ينتظر منه جواباً ، وإنما يتغنى به مفاخراً ومخلداً ، وإلا فإن آثاره الإيجابية ، وثماره الطيبة ملموسة ومُشاهدة قد صنعت جيلاً ، وبعثت شعباً .

وبعد أن تغنى الشاعر بيوم الثالث والعشرين من يوليو ، وبعد أن أشاد به مُفاخراً ومباهياً راح يُعدد مظاهر النفع ، ومجالى الخير التى أفاد منها أبناء مصر ، ونعموا بها فى ظل تلك الثورة العظيمة .

ومن ذلك ما أشار إليه – خلال الأبيات التالية – حيث يؤكد كيف أن تلك الثورة قد محت الفساد ، وقضت على الطغيان وهدمت دولة الظلم ، بعد أن عزم أبناء الوطن الشرفاء على طرد الملك " فاروق " رمز الطغيان – مُظهرين أمامه بأسهم الشديد ، وعزمهم الأكيد ، ليبدأ عهد جديد – هو عهد الحرية والاستقلال، والعدالة والاستقرار ... يقول الشاعر :

مشوا إلى الملك الطاغى بثورتهم وآذنوه بيوم حالك الظلم

وعلّموه دروساً كان يجهلها وأن مُلكاً بغير العدل لم يقم

ومزّقوا ذلك العرش الذى نصبت فيه المقادير تمثالاً من الصنم

ودولة الظلم مُنهار جوانبـــــها وإن يطل عهدها المشئوم لم يدم[1]

وعن المساوة بين طبقات الشعب ، وإلغاء الرُتــب والألقــاب ، وإزالة الفوارق الاجتماعية ، وإذابتها بينهم ، وإرساء مبدأ العــدل بــين النَّاس جميعاً ، فالكل فى الحقوق والواجبات سواء كثمرة من ثمرات تلك الثورة اليانعة ، وكأثر من آثارها الطيبة .. عن ذلــك يقــول الشـــاعر متغنياً :

حدّ المساواة بين الناس يشملهم ولا مجال لنقض العهد والذمـــــم

وما هنالك ألقـــــاب تميزهـــم ولا سبيل لوضع غير منســـــجم

فلا يُكبـــل ظلـــماً كل مبتئس ولا يبرأ (بــاشا) وهو ذوتهـــم

ولا ترى حافياً فى الأرض يذرعها ويركب(الكاديلاك) الفخم ذو اللخم

هذى الفوارق قد ذابت صلابتـــها كما يذوب سبيل التبر فى الضــرم

فحامل الفأس فى الوادى له صفة كحامل السيف والصمصامة الخذم[2]

وما أدق تعبير الشاعر، وما أبلغ تصويره فى الحديث عن إذابــة الفوارق بين الطبقات كثمرة من ثمار تلكم الثورة المباركــة ... حيــث

([1]) الديوان صـــ ١٢٣ .

([2]) الديوان – صـــ ١٢٤، ويقال لخم الرجل : أى كثر لحم وجهه .. اللســان – مادة لخم – ٨ /٦ ، والتبر : الذهب كله .. اللسان مادة تبر – ١ / ٥٨٨ ، والضرم : مصدر ضرَم ضرَماً .. وضرمت النار واضطرمت : اشتعلت والتهبت .. اللسان – مادة ضرم – ٥ / ٤٩٨ ، ويقال سيف صمصام – وصمصامة: صارم لا ينثنــى .. اللسان – مادة صمم – ٤٠٢/٥ ، ٤٠٣ ، والخذم : سرعة القطع ، وسيف خــذم : أى قاطع ، والمخذم : السيف القاطع .. اللسان مادة خذم ٤٦/٣ .

استعان فى إبراز ذلك المضمون – كما نرى بالتشبيه الرائع البليغ الـذى يشبه من خلاله أمراً معنوياً – وهو إذابة الطبقات ، وذهاب الفوارق بين طوائف الشعب كثمرة من ثمار الثورة المباركة – بآخر حسـي– وهـو ذوبان سبائك الذهب الخام ، وانصهارها إذا ما وضعت فى النار .. منتقلاً بذلك من الخفاء إلى الظهور ، ومن التخيّل إلى العيان .. ثـم مـا أبلـغ تعبيره بكلمة: –" صلابتها "– تلك التى وصف بها الفوارق والطبقات ما أبلغه من تعبير هنا ، وما أدله على المضمون ، حيث يؤكد كيف أن ذلك الأمر _ أعنى التفاوت – بين الطبقات ،والفوارق بينها بات مـن شـدة تأكده واقعاً يفرض نفسه على المجتمع المصرى آنئذ ، ويصعب تغييـره .. ومع ذلك فقد تحرك الرّاكد ، وذاب الصـلب ، وانصـهر الجامـد ... واستعان الشاعر بالتشبيه أيضاً فى إبراز مضمون المساواة ، وإرسـاء مبدأ العدل بين الرعية جميعـاً – علـى اخـتلاف طبقاتهـا ، وتنـوع مستوياتها .. حيث يقول:

فحامل الفأس فى الوادى له صفة كحامل السيف والصمصامة الخذم

ويؤكد الشاعر ذلك الأثر الإيجابي البارز من آثار تلكـم الثـورة المجيدة – أعنى مبدأ العدل والمساواة بين طبقات الشـعب ، وطوائـف الوطن – بعد ما ذابت الفوارق بينهم ، وتلاشت .. ها هـو ذا الشـاعر يُجلّى ذلك المضمون ، ويُبرزه بشئ من التفصيل فى موضع آخـر مـن شعره حيث يقول :

الأرض لله رب الناس ما خُلقت إلاالأسعى كما أرعى بها غنمـى

فلم يهب ألف فدان لذى جشـع ولابن عمى ولى شبرين فى الرُّجـم

(والباشوات) لهم فى كل مزرعة قصر وسكناي بين الشـاء والنعـم

ما أقبح الفقر ميراثا وأشنعـــه من حية نابها يحتـــــاج للترم !!

فلا احتكار ولا استغـــلال بعدئذٍ ولا اعتبار لرأس المال فى القيم [1]

وتسير أبيات الشاعر التالية فـــى نفـــس مضـــمون النمـــوذجين السابقين ، حيث يؤكد الشاعر –خلالها– تحقق مبدأ العدل والمســـاواة ، وما يعرف بالاشتراكية بين أبناء الوطـــــن جميعـــاً " فـــلا احتكـــار ولا استغلال ، ولا اعتداد بالألقاب ، مشيداً في اثناء ذلك بالزعيم جمال عبـــد الناصر ، ومُنوهاً بأثره وفضله فى تحقق ذلك ، وكيف أنّ البلاد قد نعمت فى ظل حكمته ، وحُسن سياسته ، وسداد رأيه ، ورجاحة عقله بـــالخير الوفير ، والخصب العميم ، حيث يقول :

للاشتراكية المُثلـــــى مكانتـــها فى الزرع والضرع والأرزاق والقِسم

من علّم الشعب هذا المجد يصنعه وقال دونك والعليـــــاء فاقتـــحم

وقال للفقر لا تســـــــكن هنا أبداً لقد قُتلـــت فلا تحـــزن ولا تقـــم

هذا لعمرك (عبد الناصر) اكتملت له المواهب من رأي ومن حِكم![2]

وكان من بين ثمرات ثورة يوليو اليانعة ، ومن بين إيجابياتهـــا العديدة ذلك الإصلاح الذى شمل مرافق الحياة ، وعمَّ مظاهرها المختلفـــة فى مصر ، ما بين الصناعة ، والزراعة ، وتـــأميم الشـــركات ، وحـــقّ العامل فى الخير الذى تصنعه يده وغير ذلك ... وشاعرنا – وهـــو ابـــنُ

([1]) الديوان صـــ ١٢٧، والرُجَم بالتحريك : هو القبر نفسه ، والرَّجم : الحفرة والبئر .. اللسان مادة رجم – ٤ / ٩٠ ، ٩١ .

([2]) الديوان صـــ ١٢٧ .

من أبناء الوطن الذين لمسوا ذلك الإصلاح الذى شمل كل تلك المرافق وأحسواْ به- لم يفته ان يسجل ذلك فى شعره ، متغنياً بتلك الآثار ومشيداً بتلكم الانجازات .. فها هو ذا يُحيِّي جمال عبد الناصر زعيم الأمة ، وقائد الثورة ، وصانع النصر ، ومصدر النماء ، ومنبع الخير ، مشيداً بتقدم أبناء مصر فى الصناعة ، ومهارتهم فى مجالاتها ، وكيف أنهم لم يعودوا يحتاجون إلى غيرهم بعد أن عمرت مصر بالصنَّاع المهرة ، وراح أبناء الوطن ينعمون بما تنتجه أيديهم ، آخذين ببلادهم نحو التقدّم والنماء ، والنهضة والرخاء ... يقول الشاعر :

رعى الإله (جمالاً) فهو عُدتنا عند الخطوب وعند الحادث العمم

لقد كفانا ضياع المال تخطفه أيدى الفرنجة من روم ومن عجم

كانت وسيلتهم لسلب ما زعموا من الصناعة كالأزرار والحزم

فأصبحت مصر بالصُنَّاع عامرة وبالمصانع فى خيرٍ ومغتنم

فاليوم نلبس صوفاً (من محلجنا) وبالبخار تقدمنا ولم نجم

وللمطارق والسندان سطوتها على الحديد بفضل الكير والفحم

فما بنا حاجة للبنيان قاعدة إذا أردت بناءً ثابت الدَّعم [1]

وعن الزراعة والإصلاح الزراعي ، وكيف أن أحوالهما قد صلحت وانتعشت آنئذٍ ــ بفضل تلك الثورة العظيمة.. يقول الشاعر :

أما الزراعة فاهتزت بتربتها والنيل فيها جرى باليُمن والغُنم

([1]) الديوان صـ ١٢٦ .

للقطن فيها شجيرات حوت ذهباً فى فضة لسداها أكرم اللحـــــــم

والحب ذو العصف والريحان منتشر فى كل حقل بنور الزهر مبتــسم

قد هذبتها يد الإصلاح فابتعــدت عمّا يشين فلم توصم ولن تصــم

والأرض زادت بل امتدت مساحتها من فيض ربك بارى الخلق والنَّسم

وادٍ جديد وواحـــات وأفدنـــة فيها المراعى التى تكتـــظ بالبُهم

قد أصلحوها كما شقــوا بها طرقاً للحافلات وسير الأنيق الرسم[1]

وقد جسد الشاعر ذلك الجانب المضــئ مــن جوانــب الثــورة الإيجابية ، وصوره – كما نرى– فى كلمات دالة ، وعبــارات بليغــة ، وصور رائقة تفيض بالبشر ، وتفعم بالحياة ، حيث جعل مــن انتعــاش الزراعة ، وازدهارها وإصلاح شأنها لوحة بديعة ينبض كل جزء فيهــا بالحركة ، ويفيض بالحياة ، ويفعم بالخير ، ويهتــز طربــاً ، وينتشــى سروراً :

أما الزراعة فاهتــزت بتربتـــــها والنيل جرى فيها باليمن والغنم

والحب ذو العصف والريحان منتشر فى كل حقل بنور الزهر مبتسم

([1]) الديوان – صـــ ١٢٦ ، والموضع نفسه ، والعصف :ورق مالا يُؤكل منه : أما الريحان : فالرزق ، وما أُكل منه .. اللسان – مادة عصف – ٢٨٤/٦ ، والرّيحان : كل بقل طيب – واحدته ريحانة – والجمع : ريــاحين.. اللســان – مــادة روح – ٢٨٧/٤ ، ويقال : ناقة رسوم : تؤثر فى الأرض من شدة وطئها .. اللسان مــادة رسم – ١٤٤/٤ .

حيث توفر فى هذه اللوحة الرائقة من معالم الحسن ، ومظـــاهر الجمال ما توفر !! من كلمات بليغة ، ولبنات دالة على اللون والصـــوت والحركة .. بحيث استحال كل جزء فيها إلى كائن حي ينبض بالحركـــة ، ويفيض بالحياة – فالزراعة قـــد اهتـــزت بتربتهـــا فرحـــاً بالخصـــب ، وسروراً ، وانتشاءً للنماء وحبوراً ، والنيل جرى فـــى جنبـــات مصـــر باليُمن والغُنم ، وجاد بما فيـــه مصـــدر الخيـــر وإكســـير الحيـــاة .. ، وشجيرات القطن قد استحالت ذهباً وفضة بعد أن استوت على ســـوقها ، فجادت بالخير ، وفاضت بالنماء ، والحُب ذو العصف والريحان منتشـــر بفعم بالحياة ، ويفيض بالحيوية ، وينتشي فرحاً وطرباً ، والأرض زادت وامتدت مساحتها ، وصلح حالها بعد أن قامـــت عليهـــا يـــد الإصـــلاح بالتهذيب والرعاية ، والتقويم والعناية .

وعن تأميم الشركات ، وكيف أن العُمال بها باتوا ينعمـــون بمـــا تُدرّه مصانعهم من أرباح عمّ بها الرخاء ، وساد النماء ، بعد أن كـــانوا يُحرمون من ذلك الخير الوفير – فى الوقت الذى كان مصير تلك الأرباح إلى السلب والنهب من قِبَل المستعمر وأذنابه الخـــائنين ... عـــن تلـــك الثمرة الطيبة من ثمار ثورة يوليو المجيدة بقول الشاعر :

كم من مؤسسة كانت هنا شركاً ... للسلب والنهب لم ترحم ذوى الألم

وكم بدت شركات كان معظمها ... على المرافق والعمـــــال كالحمم

قد أصبح الريع من أرباحها هبة ... تجزى الأجير بما لاقى من الغـــرم

من أجل هذا نما الإنتاج فى بلدٍ ... كان الرغيف به والملح فى القسم

فالحمد لله قد زالـــت متاعبـــنا ... وما بنا من جوى فى الصدر مضطرم

إذ نال عاملنا ما ضاع من يده وما هنـــالك من وجه لمختصم

وأصبحت مصر للمصري يملكها لا للذى اكتـــال أموالاً بلا رقم [1]

ويلح شاعرنا على ذلك المضمون ، ويزيده تاكيداً فـى موضـع آخر من شعره ، حيث يقول مُنّوهاً بالعدالة الاجتماعية التى سادت بـين طوائف الشعب آنئذٍ ،فلا اقطـاع ، ولا رأس مـال ، ولا احتكـار ، ولا استئثار بالخير لطائفة دون أخرى :

يالرأس المال من أضحوكة وسوس الشيطان فيها بالنقود!!

إن عهد الرأسـمالى انقضى وانتهى ما كان من أمر الرصيد

كل بنك هاهنا بنكـى أنـا شركائى فيه أنتم يا شهـود

ليس فينا اليوم من ذى ثروة يتهادى فى طريـف أو تليد

حوله الجوعان والعارى ومن لم يذق فى دهره طعم الثـريد

انتهى الإقطاع والظلم انقضى ليس فينا من إماء أو عبيـد

إنما فينا اشـتراك حكمـه فى المساواة اتجاه للخلـود[2]

ويا لها من سخرية لاذعة ، وما أقساهُ من تهكم مرير هنـا !! ، بعد ما جعل الشاعر من رأس المـال ــ ذلـك الـذى انصـرم عهـده ، وانقضت أيامه بميلاد تلك الثورة المباركة – أُضـحوكة وسـوس فيهـا الشيطان لأصحابها ، وأُكذوبة مَنَّاهم وأغراهم بها ...

([1]) الديوان صـ ١٢٧ ، ١٢٨ .

([2]) المصدر السابق – صـ ١٦١ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبِحوله وطَولــه تُقضــى الحاجات ، وتُذلُّل العقبات – سبحانه له الحمد فى الأولــى والآخــرة .. وإليه يُنسب كلُّ فضل ، وبتوفيقه يتحقق كلُّ أمل ، ويــتمُّ كــلُّ عمــل .. والصلاة والسلام على مُعلِّم الناس الخير ، الأنموذج الأمثــل ، والقــدوة الصالحة فى حُبِّ الوطن ، والتعلُّق به ، والميل والحنين إليه .. ســيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه الطيبــين الطــاهرين – أصــحاب الأذواق السليمة ، والطباع القويمة ، والأمزجة المعتدلة .

وبعد

فها نحن أولاء قد وصلنا ــ بفضل الله وبتوفيقه ــ إلــى نهايــة المطاف فى تلك الرحلة التى جُبنا خلالها جانباً ابداعيا متميزاً ، واتجاهاً شعرياً بارزاً ــ هو الشعر الوطني عند شاعرٍ من شعراء مصر الوطنيين المُحدثين يتبوأ مكانة كبيرة ، وينزل موقعاً عالياً بين شــعراء جيلــه ــ ذلكم هو الشاعر محمد فضل إسماعيل ــ والذى عُــرف بشــدة حُبــه ، وارتباطه وتعلقه بوطنه ، لا سيما مسقط رأسه " مدينة الســويس " ــــ تلك المدينة التى عُرف الشاعر بها،ودُعِي ونُسِب اليها ، فقيل عنــه : " شاعرالسويس " .

ويطيب لى بعد أن طوّفتُ بذلك الجانب الإبداعي المُتميــز بــين جوانب شعر ذلكم الشاعرــ وهو الشعر الوطني واقفاً فى أثناء ذلك على أبعاده الفكرية ، وآفاقه الموضوعية ، مُوضِّحاً ومُعلِّلاً ... يطيب لى بعــد تلك السياحة فى عالم الشاعر الوطني ، وذلك التجــوال بــين أبعــاده

الفكرية ، وآفاقه الموضوعية.. أن أُورد هنا أهم الملحوظات التى لحظتها فى أثناء معالجة رؤى ومضامين ذلكم الاتجاه الشعريّ ــ عند الشاعر ، وأن أُسجِّل أبرز النتائج التى اهتديتُ اليها .

وتتمثل تلك الملحوظات فيما يلى :

أولاً : كان للشاعر ولوعُ كبير ، وكلفُ شديد بالوطنية ، منذ نعومة أظفاره ، وحداثة سنه .. حيث سرى حُبُّ مصر فى دمه ، وجرى مجرى الدم فى عروقه .. فبدت مصر تلك الحبيبة التى استبدّ به حبها ، وأخذ بمجامع نفسه هواها ، واتقد الشوق فى أعماقه نحوها ، وهز كيانه ، وأخذ منه مأخذه .. ومن ثم بدا إزاءها مُتقد الشوق مُتهالك الصبابة .. وقد انعكس أثر ذلك جليا فى أشعاره الوطنية الغزيرة التى تتقد حماسة ، وتلتهب حمية .

ثانياً : يُوجد شعر الوطنية عند الشاعر ــ ذلكم الذى يسير شعره فى كل اتجاه ، ويمضى فى كل طريق ــ يوجد ذلك اللون من الشعر فى نتاجه بصورة غزيرة ، ويتوافربكثرة ملحوظة ، وبجانب كونه غزيراً متنوعاً .. فهو يسير فى أكثر من درب فكري .. ، ويسبح فى مضامين شعرية متشعبة .. بجانب ذلك لا يعدم الكثير من النماذج الجيدة العالية فى المستوى الفني ، سواء من حيث الشكل أو المضمون .

ثالثاً ــ تغلُب على الشاعر البساطة فى التعبير ، والسهولة فى الصياغة ، حيث بدا لنا خلال شعره الوطني كيف أنه جنح فى صياغته للوضوح الشديد ، ومال إلى البساطة المُفرطة .. فبدت من ثم صياغته واضحة ، جلية المضمون ، قريبة المعنى فى أكثر الأحايين ، يُطوِّعها ، وينسج خيوطها ، فى سهولةٍ ويُسر ، وطواعية وسماحة ..، ــ ومع

وضوحها الشديد ــ إلا أنها لم تصل إلى حدِّ السذاجة ، أو تهوِ إلى درك السطحية التى تُعاب بها الصياغة .. ولكن جاء شعره من ذلك اللون الذى يُطلق عليه السهل الممتنع فكان شأنه ــ أى شاعرنا ــ كما وصفه الأستاذان ــ مختار الوكيل ، وعامر بحيرى ــ إذا نظم شأن الناسج على المنوال .. يُحرِّك خيوطه يمنة ويسرة فى سهولة ودعة وطواعية فخرج من ذلك الشعر اليسير السهل الذى يُخيّل لبعض القارئين أنه من السهل جداً أن يُكتب مثله ، وهو ليس كذلك فى واقع الأمر ، ولكنه شعر أخرجته إلى السطور حاسة مُعبِّرة ، ومُخيلة مُفكرة ، وحصيلة من الأدب وارفة مُزدهرة "[1] .

رابعاً : استطاع الشاعر ــ من خلال شعره الوطني الغزير الجيد فى أكثره ــ أن يعكس لنا طبيعة تلك الحِقبة المحورية من تاريخ مصر الحبيبة ــ خلال تاريخها الحديث ، وما حدث فيها من وقائع ، وما وقع على أرضها من أحداث على إثرها تشكل وجدان مصر ، وصار لها بعد ذلك كيانها المستقل ، ووجودها السيادي .. حيث يُعدُّ شعر الشاعر الوطني بحق ــ تُرجماناً صادقاً ، ومرآة عاكسة لواقع مصر فى تلك الفترة الزمنية المعنية بالدراسة هنا .

خامساً ــ يغلب على الشاعر خلال شعره الوطني الغزير الصوت النِّضالي الذى يُحرِّك ــ من خلاله ــ نفوس المتلقين ، باعثاً فيهم الأمل فى التغيير للأفضل ، بما يُثيره فيهم من مشاعر إيجابية تحدو بهم نحو التطلُّع إلى مستقبل لوطنهم يُشرق بالحرية ، ويفعم بالخير ، وينعم

([1]) يُنظر: مقدمة الديوان ــ صـــ ق ، ر .

بالاستقلال.. فكثيراً ما ألح الشاعر ــ من خلال شعره الــوطني ــ علــى ذلك المضمون الإيجابى .. وكثيراً ما عالجه فى شعره هنا بعيداً عن ذلك اللون الانهزامي الذى يثير فى نفوس المتلقين مشاعر سلبية تحمل على التشاؤم، واليأس ، وتــدعو إلــى التراجــع والانهزاميــة ، والنكــوص والاستسلام .. حيث كان ممن ينظر إلى الشعر تلك النظــرة المثاليــة – فيما تقوم عليه من قِيمٍ تربوية ، وأُسسٍ إيجابية من شــأنها أن تــنهض بالأمم ، وترقى بها .. وكأنى به ــ أى الشاعر ــ وهــو يــنظم شــعره الوطني يرقب تلك الكلمات متمثلاً إياها : " فالشعر كان وما يــزال يُثيــر الشجاعة ، ويُذكى الحماسة ، ويُجسِّم الآمال، ويُعِدُّ البشر روحياً وثقافيــاً وسياسياً لخوض المعارك والاستبسال فيها لكسب النصر،والاستشــهاد فى سبيل الله والوطن والمبدأ والعقيدة "[1] .

وغير خافٍ أن الشاعر قد أحال ذلك الكلام فى شعره إلى واقــعٍ عمليٍ تصدع به كلماته ، و تجهر عباراته .. حيث يقول :

وخذوا الأخلاق درعاً واقــياً	ليس كالأخــلاق درعٌ ووقــاء
وافتحوا للنصــر باباً مُغلقاً	لم يكن مفتاحه غير المضــاء
وانهضوا بالعلم عن أجدادكم	فهو فى الدنيا ســلاحُ الأقوياء
وخذوا الأخــلاق درعاً واقياً	ليس كالأخــــلاق درع ووقاء
إنَّ للصنــــاع شــأناً دونه	كل شــأن يدِّعيــه الوُجهــاء
نحن فى عصــرٍ جديــدٍ ماله	غيرُ آلاتٍ تُؤدِّى مــــا تشــاء

([1]) الديوان صـــ ٢٢ .

فاصنعوا وابنُوا وجِدُّوا واعملوا وارفعوا فى ساحة المجد اللواء[1]

ويقول :

حدِّث يراعى عن الأخلاق والأدب وادعُ الشهامة وارفع راية العــرب
واقرأ أعلى هذه الدنيا رسالتنا واضرب على الجهل بالأسدادِ والحُجُب
فنحن جيش يرى التعليم عدته سلاحُه قوةُ الأقلام والكتـــب[2]

ويقول :

هذى الحياة هي الجهاد فشــمِّر ومن الثقافة خذ سلاحك واعــبِر
كن كوكباً ما بين قومك هاديا وابعث شعاعك بالضيــاء ونوِّر
هيهات يوماً أن يُقال له امرؤُ من عاش أعمى القلب لم يتبصّر
حدِّث بما أوتيتــه من نعمــة لله أكـــرم بــارئٍ ومصـــور
برِّهن على العقل الذى أُودعته بالوعي وانظر للحقيقة واشعُر
إذ إنَّ من يمشى مُكبّاً وجــهه غير الذى يمشى سوياً فاقـــدُر
الله ميّزنا بفضــل عقـــولنا والله فوق الخلق خير مُــدبِّر[3]

..إلى غير ذلك من النصوص التى مــن شــأنها أن تُثيــر فــى النفوس مشاعر الثورة، والتوثب ، وتُحفِّزهم للتقدم نحو النهضة والبناء

([1]) الديوان صـــ١٨٧ ، ١٨٨.
([2]) المصدر السابق صـــ١٨٩ .
([3]) السابق ذاته صـــ١٩١ .

سادساً ــ اتسمت أفكار الشاعر ، واتسمت مضامينه – خلال شعره الوطني ــ فى الكثير الهائل منه ــ بالقوة والوضوح ، والبُعد عن التعمية والغموض ؛ ذلك لأنه صاحب قضية ، وربيب رسالة صدع بتبليغها ، فكان لذلك حريصاً على أن يصل مضمونها للمتلقين .

هذا والله – سبحانه وتعالى – المُوفِّق ، وهو الهادي إلى سواء السبيل – سبحانه – له الحمد على توفيقه لي فى إتمام هذا العمل المتواضع –آملاً منه ــ جلّ وعزّ ــ أن ينفع به .. فيفيد منه شداة لغتنا الجميلة ، ويشفي شيئاً من غُلّة الباحثين، ويُشبع بعض نهم الغواصين عن دررها ، وقلائدها ، ولآلئها ، وصدفاتها – راجياً من ربي – سبحانه– ومُتضرعاً إليه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكون فى ميزان حسناتى يوم الدين – يوم يقوم الناس لربِّ العالمين .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

ثبت بمصادر الدراسة ومراجعها

القرآن الكريم - كلام الله ربِّ العالمين

- ديوان محمد فضل إسماعيل ــ شاعر السويس – جمع الأستاذ : أحمد مصطفى حافظ ــ ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – القاهرة ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م .
- رسائل الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – ط مكتبة الخانجى ــ د.ت .
- شعراء الجاهلية بين الأوطان وبلاط الملوك : د/ محمد أحمد سلامة – ط دار الطباعة المحمدية – القاهرة ــ د .ت .
- شعراء معاصرون : أحمد مصطفى حافظ – ط مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٨٣م .
- شعراء ودواوين :أحمد مصطفى حافظ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ١٩٩٠م .
- شعراء الوطنية فى مصر:عبد الرحمن الرافعى – ط دار القومية للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م .
- الشوقيات : شعر المرحوم أحمد شوقى – الناشر دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان د . ت .
- لسان العرب : للإمام العلامة ابن منظور – ط دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م.